EMAD BLAKE

عماد البليك

المشروع السَّردي

أنا وآخري ٧ الملك

رواية

Willowshouse
for printing and publishing

المشروع السَّردي
أنا وآخري الملك

عماد البليك

Deposit Number: 14015 / 2021

ISBN: 678 - 977 - 6597 - 78 - 0

© Willows House 2021

الطبعــة الأولــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

المشروع السَّردي

أنا وآخري ٧ الملك

إهداء

إلى جدي لأبي

في عالمه الثاني

سليل تلك الجهات!

أولاً:
الرسم على الرمال

١

في طريقنا إلى الخرطوم من بربر عبر الصحراء الموازية للنهر، توقفنا عند جبل البركل، قرب أهرامات محاطة بأسوار شائكة، أشار لي أخي الأكبر مرجان قائلا:
«هذا موطن أجدادك القدماء لقد صنعوا حضارتهم هنا»
جلست على الرمال الزاحفة أرسم أشكالاً لم أفهم ماذا تعني بالضبط، دائما ما أعشق الرسم، أرسم أشكالاً لا أفهم إذا كان لها معنى أم لا، وأرسم على كل شيء يتوفر أمامي الورق، الحائط، سبورة الفصل، على ضفة النهر، في هذه المرة رسمت على الرمال، وفي هذه المرة اكتشفت أن رسمي له معنى كبير جدا.
في الواقع كان أخي هو الذي اكتشف المعنى.
سألني : «هل تعرف مغزى ما رسمته؟»
هززت رأسي أقول: «لا».
فحدثني باستغراب:
«أنت لا ترسم أنت تكتب لغة أجدادك الذين يعيشون الآن وراء

هـذه الأهرامـات، تكتـب اللغـة التـي اندثـرت منـذ آلاف السـنوات، ومعهـا اندثـرت الحيـاة هنـا فـي هـذا المـكان، نعـم كانـت هنـا حيـاة لهـا قيمـة، وكان الإنسـان يفكـر فـي قـدره ومصيـره مثلمـا نفكـر نحـن اليـوم»

لـم يقـل لـي مرجـان مـن أيـن تعلمـت كتابـة لغـة أجـدادي التـي لـم تعـد معروفـة الآن، إلا فـي كليـات الآثـار، فـي جامعـات محـدودة فـي العالـم.

نعـم لـم أكـن أعـرف معنـى مـا أرسـمه، أو اشـخبطه، وفـي حياتنـا نقـوم بأشـياء كثيـرة لا نـدرك إن كان لهـا مغـزى أو أنهـا سـتكون مفيـدة ذات يـوم، لكننـا لـو تأملنـا فيهـا بيقظـة لأدركنـا أن هنـاك فحـوى مـا.

فـي ذلـك اليـوم تعلمـت مـن مرجـان أن العبثيـة شـيء لا وجـود لـه فـي العالـم، وعلمنـي أن كل مـا يفعلـه الإنسـان لـه فائـدة وتنضـوي وراءهـ رسـالة مـا، لكـن الإنسـان قـد يجهـل ذلـك.

قـال لـي: «هـذا طبيعـي جـدا إلـى أن يزيـل المـرء الغشـاوة عـن عينيـه وعـن قلبـه ويـدرك سـر هـذا الوجـود»

مـا قالـه مرجـان سـيظل يشـغلني لسـنوات كثيـرة مـن عمـري، سـأتجاوز طفولتـي وكأننـي لـم أعبـر بهـا، وسـأنسـى أننـي كنـت أكتـب لغـة أجـدادي المندثـرة، أكتـب كمـا كان يكتـب الملـك ”أركامانـي»، الفـرق بينـي وبينـه أن الملـك كان يعـرف معنـى مـا يكتـب وأنـا أجهـل.

فعـلا، وبعـد مـرور السـنوات، كان ذلـك اليـوم قـد مضـى وكأنـه حلـم واحـد مـن بيـن آلاف الأحـلام الجميلـة التـي عبـرت بهـا فـي مناماتـي منـذ طفولتـي وإلـى الآن.

لـم يكـن باسـتطاعتي أن أحـدد إن كان مـا حـدث واقعـا أم خيـال أم حلـم جميـل لا غيـر.
مـات مرجـان قبـل عشـرين عامـاً، وكان الوحيـد الـذي باسـتطاعته أن يقـول لـي:
«لا ما حدث كان واقعا يا محمد»
تذكـرت كل ذلـك وطافـت بـي الخواطـر وأنـا وحيـد، أقـود سـيارتي ماركـة الجيـب، أشـق بهـا الطريـق البـري الـذي قـام حديثـاً، عابـراً موطـن أجـدادي، فـي طريقـي إلـى مسـقط رأسـي، كانـت فـي الـرأس همـوم كثيـرة، لكـن منظـر الأهرامـات التـي غلفتهـا الرمـال مـن كل الجهـات، سـحب الهمـوم جانبـاً وأرجعنـي إلـى هنـاك، إلـى ذلـك الزمـن البعيـد.
تذكـرت أخـي مرجـان وعودتـه لنـا فـي البيـت آخـر العـام بعـد أن أكمـل دراسـته الجامعيـة، كان يـومُ فـرحٍ كبيـرٍ، فيـه اكتـظ بيتنـا بالجيـران، وزغـردت النسـاء، وبـدا مرجـان سـعيدا بتخرجـه.
توقفـت بالسـيارة عنـد الأهرامـات، وبـدأت فـي البـكاء علـى أخـي الـذي مضـى، رأيتـه أمامـي يشـبه أركامانـي بشـكله البهـي وعينيـه الوقادتيـن ونـوره الـذي يسـطع كالشـمس عنـد معبـد «أبادمـاك».
وبـدأ لـي يـوم عـرس أخـي يومـاً لا يُمسـح مـن ذاكرتـي، لـم يكـن ذلـك الحـدث قابـلاً للشـك، أو كان حلمـاً، كان واقعيـاً مائـة بالمائـة.
خـرج مرجـان مرتديـا زي العريـس، ضاحـكا، وإلـى جـواره مريـم تجـر ثوبهـا الفضفـاض وتُقبّـل فـي رفيـق دربهـا الـذي لـن يعيـش طويـلاً، كان الجميـع يضحكـون فرحـاً، إلا أمـي فقـد مزجـت الضحـك بالبـكاء، وهـي تتمنـى لـو أن أبـي كان حيـاً ليـرى فـرح ابنـه

البكـر. بعـد مقاومـة عميقـة للحـزن، تغلـب الفـرح علـى البـكاء، وعـزت أمـي نفسـها بأن هـذا هـو حـال الدنيا، لا تتوقـف لأحـد مهمـا كان ذلـك الإنسـان.

٢

جلس أركاماني على عرشه الجميل إلى جوار عروسه الجميلة مريم، وبدا معبد إله الشمس بؤرة ضوء تنير الليل الغارق في ظلام الصحراء على ضفاف النهر.

لبس المكان ثوب الحلم البديع، وأعلن الملك تمرده على الكهنة يأمرهم:

«حطموا إلهكم القديم وأسجدوا للإله الجديد»

في تلك الليلة حطمت البجراوية الإله «آمون»، قتلت كهنته الجبارين بعد مرسوم صدر من الملك أركاماني يقول فيه:

«وداعا لزمن أمون ومرحبا بعهد أبادماك، إلهكم وإله الشمس المقدس الذي ستكتشفون به حقيقتكم، من أنتم وماذا تريدون، وما أنتم فاعلون في يومكم من اجل غدكم“

٣

لماذا اختار أركاماني الأسد؟
هل لأنه سيد الغابة ورمز الملك والسلطان على قبيلة الحيوانات، أم لسبب آخر، لا أحد يعرف السبب، وحده الملك المقدس يعرف كل شيء، ولم يكتب لنا المؤرخ الإغريقي الذي كتب عن مملكة نبته عن هذا الأمر، فقد كتب "ديدور الصقلي» يؤرخ ذلك اليوم القديم جدا:
«احتفلت البجراوية بالإله الجديد، وقتلت الكهنة حرس آمون وبعد أن ألقت بجثثهم في النهر، نصبّت الكهنة الجدد، الذين حرسوا معبد أبادماك، كان عيداً كبيراً في المملكة النوبية، تلونت فيه السماء بلون الفَرَاش الوديع، وكان أركاماني الملك يخطو خطواته على درب الفراش إلى عرشه.
في ذلك اليوم شاركت مليوني فراشة في الفرح تسد المسافة الفاصلة ما بين الأرض والسماء في البجراوية، كان الفراش قد تربى في معبد آمون لكنه خان آمون واحتفل بإلهه الجديد»

٤

وأنا أراقب الأهرامات متذكراً رحلتي القديمة مع أخي، سمعت صوتا يناديني بهمس:

«محمد يا ولدي لا تفكر كثيراً»

من كان يخاطبني في وحدتي؟ في صحراء تمتد حول ذاتي الغريبة، في زمن لا شفيع لي، فيه.

سمعت الصوت مرة ثانية من باطني، وأنا أواصل رسمي على الرمال، أكتب لغة أجدادي، أنزف دمي الثقيل عنباً أزرق يلون سماء البجراوية في أزمنتها القديمة، أسأل روحي:

«من كان هنا، ومن ذهب، ومن سيأتي؟»

مجرة من الأسئلة حاصرتني وجعلتني أبكي في الغابة الجديدة.

خرج أجدادي من الغابة إلى الغابة، من غابة الأشجار الباسقة الخضراء إلى غابة الأشجار الباسقة الشوكية، يحزنون لموت الحياة، يرقصون كالفراشات في عيد الشمس لا يعرفون معنى لكآبتهم، يشترون السواطير من أسواق إفريقيا البعيدة يحلقون

بهـا اللحـى فـي ظـلام الليالـي البعيـدة، كان كل شـي بعيـد، حـار جـاف صيفـاً، دافـئ ممطـر فـي كل العـام، كل شـئ يتلـون بلـون الإنـاء الـذي يصـب فيـه إلا أنـت يـا محمـد، يرجـع الصـدى فـأراه جالسـاً أمامـي سيدي ومـلاذي أركامانـي.

قلت له:

«هاأنـذا لا أفكـر كثيـرا، أقطـع أفـكاري بنـور الغيـب القـادم، فيـه حلمـي وأملـي، وحيـد أبحـث عـن مـلاذي فـي الحيـاة، كالعصافيـر أنـام فـي عشـي المهجـور بعـد إيابـي، صدقنـي أنـا عائـد إلـى مسـقط رأسـي بعـد الغيـاب الطويـل، مـن يصدقنـي غيـرك يـا رب الشـمس؟»

٥

كنت صغيرا جداً، وكنت كبير جداً، ربما بحجم طائر الزرزور، وربما في حجم الفيل.
يسمونني محمد واسمي نفسي أركاماني، لساني قصير وعقلي كبير وعيناي وخاذتان تعجب الرجال المخنثين قبل النساء.
كانت أفكاري تهرب مني فيسرقها القاصرون في وضح النهار، أحلب بعض الأفكار وحدي، وأشرب الفكرة ثم الرؤية، ولا أنتفع بهذه أو تلك.
هرب أركاماني تركني وحيداً أتلفت في الصحراء، أعاين الأهرامات القديمة، أسأل هل كانت هنا حياة؟
هرب الملك وكان يعرف أن بإمكاني أن أدبر حالي في زمن بلا أحوال، فيه الرجال عراة بائسون إلا من أبى، يبحث عن حرية جميلة كالفراشات يوم عرسها، وكان يعرف أكثر أنني لا أرغب في فكرة الوجود، ولو سألني لما؟.. لم عرفت الجواب.
يقول ديدور الصقلي إن عمري كان ثلاثة أعوام، يوم كتبت لغة أجدادي على الرمل، ويوم ضاع مني أركاماني إلى الأبد، غاب في النهر، رحل إلى بلاد بعيدة، لم يقل لي سأعود، لم يخبرني

عن حيل محددة لمواجهة الحياة ووقاحة البشر والدنيا، لكني وجدت له العذر.

كان الموج سريعاً في تقلبه العصي، أسرع من عقلي وعقل الملك، رأيته يرفع يده اليسرى يستنجد بي، أو كأنه كان يقول لي وداعا يا محمد، وداعاً إلى الأبد، وداعا لعالم الجنون، لا تخف سنلتقي يوماً ما.

وطال انتظاري لهذا اليوم، تأخر، ولن يأتي أبداً في أيام الدنيا التي لا تفي بالوعود.

٦

كنت أنتظر ساعة القيلولة لأعود للبيت ونتناول طعام الغداء سويا أنا وأمي ومرجان، قبل أن يصلي أبي كعادته وينام إلى ما قبل العصر، ثم يستيقظ بعدها للقهوة والتأمل في حال الدنيا والمعاش، لا يأخذه التأمل طويلاً، يشرب القهوة على عجل ويهرب إلى المزرعة على ضفاف النيل، يحفر هنا وهناك، ويعالج المياه والسدود المتدفقة غضباً على حالها. يؤذن المغرب، يعود ليصلي في مسجد الحي الكبير.

في العادة أذهب إلى المزرعة في الصباح مع أبي، في غير ما موسم المدرسة، أما في العصر فأظل كالبنت في البيت، أرتب الغرفة الوحيدة التي نعيش فيها، فلم تكن لنا أخت لتتولى هذه المهمة المخصصة للبنات.

أفرغ من النظام، فتعود الفوضى مع عبثي هنا وهناك، بعد أن أكون قد غسلت أواني الطبخ وصببت الماء من الحنفية الشحيحة في الزير، وقدمت البرسيم للبقرة التي تمنحنا البقاء

للغد، بلبنها.

ينتهي العمل، فآخذ كراستي التي أهداني لها الطبيب الوحيد في عيادة الحي، وابدأ في الرسم والشخبطة. أرسم أشياء كثيرة، بعضها احتفظ به، وبعضها أمزقه في الحال، لأنه لا يعجبني، وأكثر ما كنت مغرماً، برسم الفراشات، قبل أن اكتشف عالم الملوك، بعد موت أبي. كنت أصطادها من البر شرقي البلد في مواسم كساد النهر قبل الصيف.

حبي للفراشات تحول إلى محبة لجنس هذه الكائنات الجميلة، بعد أن تعرفت على الملوك، أشعرتني رقة الفراش وعذوبته بنوع من الأسى لعشرات الملوك الذين عرفتهم لاحقاً في كتب التاريخ، وكنت أقول لأمي:

«هذه كائنات تستحق منا العطف والمودة»

٧

قبل أن أشق طريقي إلى البجراوية وأتوقف هنا، لأسلم على سيدي أركاماني، كنت قد دخلت بلادي عن طريق المطار، استوقفني موظف الجوازات قائلاً:

«تعال، لا تعبر من هنا ألم تقرأ اللافتة؟»

لم تكن هناك لافتة، كان بصري قوياً، كما لم تكن لدي رغبة في محاججة الموظف الغبي، لم أتحدث معه كثيراً، اكتفيت بابتسامة مصطنعة أهرب بها من غبائه. وقفت في الصف إلى أن جاء دوري، قدمت جواز سفري، هويتي.

سألني الموظف:

«ما اسمك؟»

رددت عليه بغضب:

«مسجل في الجواز، اقرأ، ألا تعرف القراءة!»

لم يقل لي أنا أُمي، قال:

«لا أعرف»

قلت له:

«أذن أكتب، اسمي أركاماني، مهنتي ملك متقاعد يحب الفراشات، رائحتي حلوة، وعيوني جميلة عسلية»
وأكملت الباقي في سري:
«ومؤخرتي تتسع لتمرير الجيوش النوبية في خيانة كبيرة»
لكنه لا يعرف أن يكتب، لقد سمعني، وابتسم ابتسامة صغيرة لم أفهم مغزاها، ثم تغيرت ملامح وجهه الغبي، الذي يشبه علب الصفيح القديمة المثقوبة، ليسألني بخبث:
«هل أنت لوطي ؟»
كانت تلك عودة لا تنسى، فحادثة اعتقالي في المطار، لأنني أسأت للجيوش النوبية سراً، كانت مجرد حدث عابر، اعترف أنني زججت بنفسي في المصيدة.
وشرحت لرجال الأمن الذين اعتقلوني من يكون أركاماني، فقد كانوا لا يعرفون عنه شيئاً، لكن الحدث الذي لا ينسى حقيقة، هو لقائي مع أجدادي في البجراوية، قبل أن أصل إلى مسقط رأسي في الشمال، عند ضفة النهر.

٨

كنت قد مررت بالخرطوم عابراً، كأنها لا تهمني أو أنني درست وعشت بها ذات يوم، وعملت فيها فترة من الزمن، كنت في شوق للقاء الأهل، بعد غياب طويل أمتد لعشر سنوات وربما أكثر بشهور. ودائما ظلت الخرطوم مدينة لا تبقى بذاكرتي، فالمدن عندي مثل الأحلام، أعاشرهن في ليالي ضحلة، أقضي بهن حاجتي، وأرمي بهن في الفجر مثل أعقاب السجائر الأمريكية التي أدخنها.

في الصباح سأرمي بالخرطوم في مزبلتي كسيجارة صدعتني. وقد كان ذلك بعد نهاية الرحلة وعودتي لعملي خارج البلاد، كنت أجلس على مقعدي في الطائرة، متأملاً بقايا سيجارة، رميت بها من على مقعدي، على الأرض، عند ملتقى النهرين، تلاشت حتى ذابت وانتهت بالموت.

كنت سكراناً أخال نفسي ملاكاً عظيماً يسافر على متن الخطوط الجوية الملكية النوبية، ينظر للأرض من علٍ محمولاً على طبق طائر بأجنحة البراق.

وقفت المضيفة أمامي تسألني:
«ماذا تريد؟»
«لا شيء»
«ألم ترن الجرس؟"
«نعم»
«إذن ماذا تريد؟»
«أريدك أنت ملكة تجلس مع الملك في عرشه»
لم تجب عليّ، تشاغلت بتحريك نهديها الكبيرين تحاول إثارتي، لم تكن جميلة لكن أردافها كبيرة وعيناها تشبه عيني أبادماك، كانت تمثل أنها لا تسمعني، وكانت تسمعني بدقة تامة.
كررت لها طلبي فضحكت تواصل سيرها في الممر، بين الركاب النائمين، في إضاءة خافتة، كانت تمشي مثل مدينة عرجاء لم أدخلها بعد، لكنني دخلتها بعد قليل.
كنت قد دخلت جسد المدينة العرجاء، وخرجت منه غير تائب، أنا أركاماني.
سألتني عن اسمي فقلت بزهو، أنفخ صدري:
«أركاماني»
قالت:
«هذا اسم عجيب!»
حدثتها بغضب مفتعل:
«الأعجب أنكم لا تعرفون تاريخ بلادكم»
لم يكن ذلك كله مهما، المهم بالنسبة لي، هو دخول جسد

المدينــة المحمولــة علــى طائــرة الإيربــاص الملكيــة.
أشرت لها بإصبعي ففهمت أن المقصود هو «التوليت».
دخلنـا سـويا، بـل دخلـت هــي ورائــي بحجـة إصـلاح عطـل جـرار المــاء، وبقيـت بالداخــل، تحــاول إصــلاح الجــرار بتلمــس ذكــر ملـك أسـطوري، وتماسـكت بذكـري خشـية السـقوط، عندمـا أعلـن الكابتــن عــن دخــول منطقــة مطبــات جويــة:
«يرجى من السادة الركاب التزام مقاعدهم»
أغلقــتُ البــاب، فتحــت جســد المدينــة المحمولــة جــواً، فرأيــت غابـة ذكرتنـي بالغابات المداريـة فـي ممالـك النوبـة، غابـة بأشـجار سـوداء لــم أر مثلهــا مــن قبــل.
يقـول ديـدور الصقلي:»مثـل هـذه الغابـات كانـت هنـا فـي البجراوية فــي زمــن ليــس بعيــداً، وظلــت إلــى مــا بعــد مئــات الســنوات مــن نهايــة عهــد الإلــه أبادمــاك«.

ثانياً:
مع وضد الكهنة

٩

كأنني ذاك الملك الذي تغلفت أيامه بالحزن، يوم قرر استبدال الإله، كأنه يعرفني، أو كأنني هو، كنت قد لاقيته، قبل سنوات بعيدة جداً، كان وسيماً، ذكياً، يتمتع بخواص نادرة، قل ما تتوافر للملوك، أمثالي.

ضحك في وجهي، يقول لي:

«أنت!»

قلت:

«نعم، أنا»

سألني:

«متى عدت إلى البلد؟»

كذبت عليه، أقول:

«قبل يومين»

وفي الواقع أنني لم أفارق البلد أبداً.

مضى في سبيله، ومضيت في حالي، أبحث عن مصادر جديدة

لنهر الحزن في حياتي.
لماذا أنا حزين؟. لا أعرف!.
لكني سأحاول الجواب عن السؤال بتجردٍ تام، بمحاولتي استنطاق عفاريت ذهني المخبأة، أراجع ذاكرتي، لكن هذه الذاكرة الصدئة لا تعمل، إذن ماذا أفعل؟
أثرثر قليلاً مع ذاتي، انشطر بكاءً، مع انحدار الدموع اكتشف أن البكاء يكسر حدة الحزن في الذات، يخفف آلام الملك.. الوحدة والعذاب والتطاول على الآلهة.
أدخل سجن الذات، لا أعرف جرمي، كنت أسير في الشارع، أبحث عن لقمة عيش أُسد بها بؤسي، فإذا برجل بشارب كثيف ولحية يقف أمامي، يصوب نحوي مسدساً ضخماً، يقتادني نحو العربة، أجد نفسي داخل غرفة صغيرة مساحتها لا تتعدى حجمي بكثير، كأنما فُصّلت لتناسب حجمي، أو كأنها قبري، ظننت أنني أنام في القبر، وفرحت كثيراً لكوني أودع عالماً من الشقاء والأنانية.

١٠

ليومين وأنا على هذا الحال، خرجت بعدها من القبر، دخلت وخرجت دون أن أفهم السبب، أو يقابلني أحد ليحدثني، يسألني، دون أن أتعرض لركلة، أو يتفوّه كائن ما بكلمات تشعرني بالضيق. مضى شهران، وربما أيام قليلة بعدهما، دون أن أفهم ما جرى معي، ما زلت أبحث عن لقمة العيش، وأفكر عندما لا أجدها بأن آكل أفكاري، حدثني أركاماني وأنا طفل:

«يا ولدي الأفكار لقمة عيش»

جربت أن أمضغ أعظم أفكاري، لكن بلا فائدة..

«الفكر لا يسد رمقاً أيها الملك»

قلت له وهو بعيد عني، هناك، يتوسد قبره في النهر.

هل كان يسمعني؟

رأيته في الحلم، فتح رمسي، همس يقول لي:

«اضحك»

كنت عابس الوجه، غير قادر على الضحك.

كرر الكلمة، فضحكت مرة، مرتين، ثم صمت، فغاب عني، توارى وراء جبل من رمل.

١١

حاولت مراجعة الماضي في ذاكرتي المرتجة، وصوت مزلاج الباب القديم يكتم أنفاسي، تفوح منه رائحة نتنة، احتملتها.
عاينت صورتي في مرآة الحائط بالحمام، كنت قد دخلت ونسيت أن أغلق الباب.
تناولت سيجارة من الصندوق الذي سرقته في المساء من صاحب المقهى الليلي، مع أول نفث كنت أغني «سعادتنا في تحدي العالم».
تحديت العالم بتغوطٍ فظيع، تأملت خيوطاً هلامية على الحائط تواجهني، حاولت أن أجمّع منها صورة لحبيبة قديمة، هجرتني عندما اكتشفت أني حلمي أن أكون ملكاً.
عجزت عن لمّ الصورة، فأغمضت عيني، كان الباب لا يزال مفتوحاً، قمت، أغلقته بهدوء، أسأل نفسي عن سبب هدوء الضجة، فالليل في بدايته.
فتحت الماء، انساب يغمر جسدي العاري، لا استحي من الإعجاب به، افتعلت خوفاً أبرر به حياء مفتعلاً، أقاوم به جرأتي تجاه هذا الجسد، كنت كمن يخاف من مجهولٍ،

جسـدي كان هـذا المجهـول، ووجهـي بـدا غريبـاً، كان رجـل آخـرٌ وراء المـرآة يحدثنـي، يقلدنـي، يسـألني:
«من أنت يا ملك الملوك؟»
فجـأة قفـزت صـورة الحبيبـة القديمـة، بعـد أن دسـت ملامحهـا عنـي، وبعـد أن حاولتهـا فاسـتعصت علـيّ، قلـت:
«يا ولد أتركها وشأنها»
كانـت مكابـرة كعادتهـا، الرجـال يقولـون عنهـا إنهـا بـلا مـزاج، وأنـا أقـول هـي مغامـرة.
قبـل أن أغلـق المـاء، نظـرت إلـى غائطـي وقـد أخـذ طريقـه إلـى قـاع المقعـد، تملكتنـي رغبـة فـي تحسسـه، كـم هـو غليـظ كقلبهـا، فكـرت فـي قلبهـا، فأحسسـت بتفاهـة التشـبيه. كـم أنـا غبـي! ثـم زاحمنـي الـرأس بشـعرات مسـافرة مـع الريـح، تتسـلق الجـدران، تسـابق جنـادب مقززة، تلمستها رغـم خوفـي، أنـادي بأعلـى صوتـي..
« يالبؤس حياة الملوك ”
أدخـل الغرفـة، أدفـن رأسـي فـي الوسـادة، منبطحـاً علـى بطنـي، أفكـر فـي النـوم، منـذ أيـام لـم أنـم مبكـراً بسـبب الـزكام، قلـت:
«ربما كان الضوء سبباً»
أغلقـت السـتارة، أطفـأت الشـمعة الصغيـرة، بـدا شـيء مـا، دبيـب مـن القشـعريرة والاسـتياء، يحيـط بـي، يدخلنـي، يقـاوم داخلـي، تسـمرت عاجـزاً عـن النهـوض، مـددت رجلـيّ، قفـزت رجلـي اليمنـي فأشـعلت المصبـاح الكهربائـي.
مـع الضـوء كنـت قـد انزلقـت علـى أرض الغرفـة، علـى الرسـومات التـي انتهيـت مـن تخطيطهـا بالأمـس، قفـز كاهـن يعطـس فـيّ، لـم

أحفل به، سمعت تلك الحبيبة تقول لي:
«رحمك الملك»
أطفأت النور، رقدت على ظهري، سرقت أنوار الشارع العام مساحات من الغرفة، عبر ثقوب النوافذ، سمعت أصوات السيارات، همس العاهرات عائدات لتوّهن من الفنادق الليلية، صراخ الباعة، كان الفجر لا يزال رصيفاً.

١٢

في الصباح عليّ أن أرتب أفكاري مع غليان « الكفتيرة »، سحبت آخر سيجارة أبقيتها من الليل، سكبت الشاي في المصفى، أضع الكوب تحته، أصب الماء الساخن، تعودت على هذه الطريقة في صنع الشاي من بائعات الشاي والهوى في شوارع الخرطوم.

سحبت من بين الرسومات على الأرض، لوحة رُسِم فيها طفلاً يرسم على الرمل، أفكر هل هذا الطفل أنا؟، لماذا لا يكون محمد؟

قذفت باللوحة بعيداً، أطلق نفثة من سيجارتي، أراقب الدخان يصعد لسقف الغرفة، يتدلى عندما يرى العناكب في السقف.

تذكرت جارتي سلوى التي قالت لي قبل يومين:

«سأحضر لتنظيف الحجرة وترتيبها، يجب أن تعيش في وضع مريح»

كان العيد على الأبواب، ولكني لا أحفل به، لا ضيوف لي، ضيوفي جالسون معي دوماً، هؤلاء الكهنة الذين انتهيت من رسمهم قبل عام.

سكتت، تمطّ شفتيها في وضع مثير، قالت:

«أنت كذاب، حياتك كلها وهم»

ضحكت أرد عليها:

«لكن الوهم هو معنى الحياة يا سلوى، هو الحياة نفسها التي نبحث عنها»

ضربت بيديها على ردفيها الكبيرين، أنا مغرم بالأرداف الكبيرة. باستياء متعمد، أغلقت الباب، كلهن يغلقن الأبواب، تبدو مضجرة وراغبة، لكني لم أعاقرها، لم أر غير برهان الملك.

قابلتها بعد ثلاثة أيام في سوق الخضار، كنت أبحث عن قطعة بطاطس تشبه وجه أركاماني، قرأت ليلة أمس ما خطه ديدور الصقلي: «أركاماني عشق البطاطس طوال حياته، فعشقته البطاطس، واختارت بعد هروبه إلى النهر أن تمنح بعض أحفادها شكل وجه الملك».

سألتني: «من كان معك ليلة أمس؟»

فكرت هل كان معي أحد، لا أتذكر، لقد تشبعت بالنسيان منذ سنوات، أجبتها:

«لا أحد»

وضعت سلة الخضار على الأرض، ونظرت إلى عيني بعمق، شعرت بالخوف من نظراتها، وهي تحدثني بعنف:

«أنثى أليس كذلك؟»

غضبت أكثر، وصرخت فيها:

«أنت مجنونة تتوهم»

فلتذهب وجنونها، وتغسل بوهمها مؤخرتها، لا شأن لي، كنت أحدث نفسي وأنا أسلك طريقي عائداً إلى البيت، أنستني البطاطس بغضبي.

١٣

فـي الشـارع راجعـت صـورة الحبيبـة القديمـة، قبـل أن تقلـق مراجعتـي، أبـواق السـيارات المكتظـة فـي الشـوارع الضيقـة، جعلنـي الحـر أتصبب عرقـاً، كنـت أريـد أن أشـتري منديـلاً ورقيـاً، لكـن مـا بقـي مع الملـك مـن نقـود، لا يكفـي، ولـم يتنـاول فطـوره بعـد، لـم يشـرب كوبـاً مـن الشـاي، أو يشـتري سـجائر أو صحيفـة صباحيـة تافهـة، يـرى فيهـا صـورة الملـوك الذيـن لا يتشـبهون بالملـوك.

الطريـق كان مزدحمـاً، لدرجـة مقرفـة، توقفـت للحظـات، أعايـن وجـوه المـارة مـن البشـر والسـيارات والحميـر، أتفحصهـم جميعـاً، كأننـي لا انتمـي لهـذه الأشـياء، فقـد بـدت ملطخـة بالوجع، لا اشـتهاء فيهـا، يسـكنني هاجـس أننـي مشـرد، ومالكـة الغرفـة التـي أسـكن بهـا تطالبنـي بمغادرتهـا أول الشـهر، صرخـت وحـدي:

«العالم لا يطاق»

لا أنكـر أننـي فكـرت قبـل أيـام فـي الانتحـار، كوسيلة تخلصنـي مـن العـذاب، مـن ضيـق العالـم، أكثـر مـن عشـر سـنوات مضـت لـم أر فيهـا نفسـي، لا أذكـر متـى قـرأت كتابـاً جديـداً، الكتـب أصبحـت

لا تجـدي، تشـحنني بوجـع القلـب، انتبهـت إلـى صرخـة سـائق تاكسـي، ينهرنـي كالبعيـر:

«يا حمار، سر محترماً في الشارع»

صرخت فيه:

«يا أهبل، وهل أنت محترم؟»

لـم يلتفـت لـي بعـد قولتـه، استمر يضـرب بـوق سيارته المتهالكة، تصـب المـاء مـن أسـفلها، كأنهـا تتبـول، ينـزع شـريط الكاسـيت مـن المسـجل الحجـري، ويضـع آخـر، ينبعـث منـه صـوت مرتـل القـران، فيمـا كنـت أفكـر، أيـن أذهـب؟

١٤

أول المساء، تبدو الأشياء مدوخة وقاهرة في مدينة ملعونة، فكرت أن أدخل المسجد، أصلي العشاء، منذ شهور لم أصل، يكسوني وهم أنني نصف إله، وأحياناً إله كامل فقير.

دخلت المسجد من البوابة الخلفية، انحرفت يساراً تجاه دورة المياه، أشار لي حارس الدورة العجوز، أن أجلس بعيداً، إلى الناحية الثانية، قال بغضب:

«هذه دورة النساء»

عدلت حال سوستة البنطال، أحاول تحمل الماء الفائر في مثانتي، اتجهت نحو الجهة التي أشار العجوز إليها، وجدت أكثر من عشرين رجلاً في صف طويل، كان آخرهم محمد، وبعد برهة طال الصف، فكنت أوله، أبصق على الأرض، فيقرصني جاري، منبهاً إياي، للافتة المكتوبة أمامي..

«الرخام جميل، من فضلك لا تبصق»

قلت في سري، لكن صوتي ارتفع:

«هل هو رخام الجنة؟!»

مع ضجيج البعض، الذي لم أهتم به، كنت قد أدركت محصل النقود، يجلس جوار منضدته الخشبية المتسخة، ممسكاً

بمسبحة، يحركها مع صوت النقود، وهي تسقط في الحصالة، يسجل كلاماً هيروغليفيا على الدفتر.
ارتفع صوت المؤذن، ومعه بدأ الرجال يتململون في الصف، سمعت بعضهم يقول:
«لن نستطيع الصلاة «
كنت في أول الصف، بمحاذاة طاولة محصل النقود، لكني وجدت نفسي دون أن أشعر، في منتصف الصف تقريباً، ما الذي جرى ؟ لم أفهم! ولم أجهد روحي بفهم ما لا يفهم.
مرت خمس دقائق، كان الصف قد نقص خمسة رجال من ذوي الأحجام الكبيرة جداً، والأجساد المترهلة بسفالة، حدثت نفسي ضاحكاً:
«مثل هؤلاء، لا شك أن غوائطهم تسد أفواه المقاعد في الحمامات»
قبل أن أفكر في غائط رجال كانوا أضخم من هؤلاء، رأيت رجلاً سئم فترك الصف، وهو يلعن دورة المياه، وكان في سره يلعن النظام، ويلعن وقوف الناس في صفوف مستقيمة، وآخر دلف بعد مشاجرة مع محصل النقود، عبر البوابة الواحدة للدورة، ففاز بحمام لا يجد فيه موضع قدم من العفن.
أقيمت الصلاة، فرأيت أنني لو انتظرت في الصف، الذي أصبحت في نهايته، لن أصلي أبداً، فتركت رغبتي في الصلاة، التي اكتشفت أن دافعها الرغبة في التبول.

١٥

خرجت من المسجد إلى الشارع المزدحم بالبائعين المتجولين وصبية الورنيش والنازحين خوفاً من الحرب.

بدأ المطر يداعب خصلات الإسفلت المهشم، فقد كان الفصل أول الخريف.. ارتفع صوت مادحٍ للنبي (ص) يغني:

«الصلاة والسلام عليك يا نبينا»

على يمينه، مجموعة من الناس، يلتفون حول صبي معوق يؤدي حركات بهلوانية، مثل أن يشرب الشاي برجله، فيضعون النقود أمامه.

اتجهت نحو موقف الحافلات، وجدته خالياً، الركاب المنتظرون انحشروا في صالات الدكاكين خوف المطر، الذي انهمر فظيعاً، شعرت برغبة في التدخين، انزويت في صالة أمام مجموعة من الدكاكين، التي أغلقت أبوابها، اشتريت سيجارة واحدة من بائع السجائر الجنوبي، أشعلتها، جذبت نفثاً، أحاول معه أن أتأمل صورة الملك، أين هو الآن؟ وماذا فعل به شعبه الوغد؟

هرب الملك، ومعه هربت حبيبتي القديمة، مع عبور فتاة من قبيلة «الزاندي» بجواري، ملتصقة بي، في وضع شبه متعمد، عندما نظرت إليها شزراً، قالت:

«سوري»
واصلت سيرها، تابعتها إلى أن ركبت التاكسي، وهربت من المطر، الذي تحول طوفاناً.
كان الليل يدخل ببطء في جسد السوق، والبرق يكشف عورة الأشياء، استحم أنا بوجعي، أتأمل خواطري السمجة، غير حافلٍ بما يجري حولي، تستند بعض الأشياء عليّ، فأدفنها في خلاياي.

ثالثاً:
في هذا الصباح سأقرأ شعراً

١٦

فرغت من ترتيب أشياء قديمة، كنت احتفظ بها في حقيبة، عمرها لا يقل عن عمري، حملتها معي منذ طفولتي، تمنحني دفء الحياة، وتكسر من حدة حلمي بالثروة والثراء العاجل، أن أكون سيداً في قومي، يشيرون إليه بالبنان، أسير وسطهم كملك، يوقرونني، حتى لو كانوا يكذبون عليّ، يكرهونني في سرهم، ينسون أنني أنتمي لعائلة فقيرة.

الحياة كعادتها، لا تذهب وفق طموح المرء وأهدافه، فقد اكتشفت وأنا أقلب محتويات الحقيبة، أنني لم أغادر المحطة الأولى، فقد ظل وزني كما هو ٥٢ كيوجرام، وطولي ١٦٧ سنتمتراً، وبدا لي مشواري مع الدنيا، كمن غرس نفسه نبتة، وسط وادٍ أقرع، كان أمامي خيارَ أن أنفي جسدي إلى وادي الموت، لكنني جبان، شجاعتي لا تتعدى بطولاتي المزورة، في أن أرسم على

الـورق.
هاتفت مريـم، كانـت تتهـرب مـن مكالماتـي، تـرد علـي بسـرعة، ثـم تعتـذر قائلة:
«أنا مشغولة يا محمد»
وأحيانـا يـرن جـرس الهاتـف حتـى يئـن، ثـم عرفـت لاحقـاً بعـد أن كثـر أنيـن الجـرس، أنهـا تزوجـت وهربـت مـع زوجهـا إلـى أميـركا، بعـد أن وقـع اختيارهـا صدفـة، عـن طريـق قرعـة "اللوتـري»، للهجـرة.
مـات مرجـان بعـد عـام مـن زواجـه بهـا، ورغـم فـارق السـن بينـي وبينهـا، كنـت أفكـر فيهـا كزوجـة، علـى الأقـل سـأضمن أنهـا ليسـت عاهـرة، لكـن أحلامهـا لـم تصـب فـي مجـرى نهـر أحلامـي، لأنهـا لا تحتـرم مـن يحلمـون بدرجـة مبالـغ فيهـا، أن يصبحـون ملـوكاً، ولأنهـا درسـت التاريـخ بجامعـة الخرطـوم، فقـد كانـت كثيـرة الشـك تجـاه مـن يثقـون فـي التاريـخ وملوكـه.
حدثتني بعد رحيل مرجان بأيام:
«التاريخ أكذوبة كبيرة، تماماً مثل الحاضر»
كنـت معجبـاً بفلسـفتها، لكـن الفلسـفة تسـقط أمـام الفقـر، وأنـا كنـت لا أملـك قوتـي ولا قـراري.
دائما أسميها الحبيبة القديمة، وأتذكر ما كانت تكرره لي:
«هذه الحياة لعبة، ونحن أوراق اللعب»
وكنت أقول لها:
«دعينـي يا مريـم أرتـب الأوراق، لأكـون معـك، أحتاجـك أن تنزعـي قلقـي لأعـرف كيـف ألعـب»

١٧

كل شيء مضى، تساقط ورق الحلم، وأنا أنتظر مفاتيح الصباح، كنت وحيداً أدغدغ حزني، وكانت هي بعيدة، في بلاد تفصلها عني الجغرافيا وإحساسي بالعجز والإحباط وربما الخوف. حتماً لن أجدها، لن أضمها إلى حضني العاري، لن أقول لها: «تعالي نغني سوياً»

لتقول لي:

«دع الغناء فإنه لا يجدي ”

من سأحدثه عن مأساتي، جنوني، عن لغة الرفض التي تحاصر حياتي، فترفضني الحياة والأحلام، وماذا بإمكان رجل مثلي أن يفعل، وهو لا يملك غير سروال من القطن، غزلته أمه في ساعة من نهارات حزنها، ألبسته إياه، لكي يستر عورته، فهل سترت العورة؟

تدرك مريم، أن لغة الرفض هي التي تقلقني، أن حلم طفولتي ضاع، لا تحاول أن تخفف من ألمي، لتقول لي:

«ستعود أنت، أنت، ستحب الدنيا رغم زهدك المُدعى، وستنسى حزنك»

أنا حزين فعلاً، ولو أدركت مريم حزني، لاحترمت أخي في قبره.

هل كنت أهزأ، أرى ما لا يراه خيالي؟ أم أن ما جرى وما يجري من حولي وفيّ، غيّر لغتي ونظراتي، حتى وجهي تغير، لم يعد

ذلـك الوجـه القديـم، أصبحـت رجـلاً كإنـاء مـن وجـع، محفـوف الشـوارب، أصلـع الـرأس، زنديـق، ينظـر إلـى عينيـه وباطنـه بـأرق شـديد، يحـاول أن يتجـاوز معنــى العنـف فيـه، فيعجـز، كـدت أن أصـرخ، وأنـا أفـرغ محتويات الحقيبـة، ارمـي بهـا بعيـداً، فـي مزبلـة الممالـك النوبيـة.

١٨

حتى هذا اليوم، كانت السماء تمطر، البروق تنتزع الفرح من قلب السماء بضحك يشمئز له العاقل، كنت مستعداً لإعادة التفكير في أشياء كثيرة، لكني أنسى، فقط أعود لتذكر جراح حياتي القاحلة، مفرداتي المنهوبة، الحرية كمفردة للعيش والانكسار، البطل الذي يأتي كما عودنا في نهاية المشاهد ليصرخ، ها أنذا، الجنون، الذي لم يعلم الفوضى تألقاً ونظاماً. وجدت المفردات تغرق ما حولي من سدود الخوف، باستثقالها خطوي، كأنها تضحك في وجهي، تلعنني بقوة قاهرة، تقول لي: «أنت حثالة زمن التيه»

أرى في الظل أمامي ذكوراً بأذيال الكلاب، تعلموا النباح وصاروا يحترفون الخديعة، الخوف من أسيادهم الملوك، بعد أن تحولوا لطواحين من هواء حار، في أشد فصول العام برداً وقهراً.

غادرت كل شارات الضوء والأمل، فوجدت نفسي وحيداً، أتقيأ الحزن على رصيف الطريق المبلط بالوجع، كان وجع العام ممتزجاً بأشياء لا مفر من الاستغراق في أحكامها السمجة، شاءت الروح البليدة أم غادرت إلى مصاف الأماني الكاذبة.

سمعتُ صوتي العاثر، غريباً، تسوده الرغبة في تحطيم لغة الوجود، تتحلل عصابات الحروف الشاردة، في غابات ومستنقعات وبرك آسنة، لا تعرف كيف تقرر مصيرها، مثلها

كعجزي عن استحضار لوحة العالم في قلبي، مصنوعة من بقايا نتف قديمة رائعة الألوان، تذوب فيها أجساد الغرباء، يغسلون ضوء الشمس بالنعاس اللذيذ، قبل أن يدلقوا في الأحلام النهارية ألف لترٍ من ماء العفن، جبناء، يحدثون ذواتهم عن أنفسهم القبيحة، بكلمةٍ ممجوجة لا تُصدقْ، تناوبوا الاستلهام الغائط في راحة العمر، يحنون لزمان آخر، تنكسر فيه المفردات جوراً، ثم تعود لتنزف دموع المحبة، تجاه عالم لا يصدأ بالأنين والصداع.

١٩

سـمعت صوتـي، صوتـه، سـيدي الملـك، وأنـا أخطـط اللوحـة الجديـدة:

«أنت ذاك البطل الذي غادر إلى مشهده الأخير دون الـها هأنذا»

كنت قد تأزمت بنفايات الخوف، أخال كل أناء معبأ بالعواطف ملِكٌ لـي، أركض صريعـاً بالتحـدي المجـوف، أتمـرن علـى قـراءة كتاب الزمـن، واحتـراف لهجـة الحركـة والحريـة فـي تقلباتـي، ضد أشـواق الجسـد نحـو مأسـاته، لأقـف حليـق الـرؤى، أعـد صالونـات الغيـب المنتهـك بالشـهوة المفتعلـة، نادمـاً علـى الحيـاة، تمضـي نحـو جراثيـم مبتغاهـا المسـتعجلة للرحيـق.

قلت للملك:

«يا أبي هذه قوارير الظلمة تحرقني»

فقـال لـي، وهـو يعبـر جسـر الحقائـق الملفقـة إلـى تكوينـي، أن زورقـي انشـطر عنـد سـدرة المنتهـى، ضاعـت خطواتـي العجولـة، وترملـت أحلامـي، قبـل أن أغـرق فعـلاً فـي شيطان الـروح، وأغنـي معـه أغنيـة الصفيـر الكسـول.

٢٠

كنت قد عبرت الجسر إلى السدرة، وجدته هناك جالساً، أركاماني، يتسلى بمضغ قصب السكر المعجون من بقايا رحلتي الأخيرة إلى ذاتي، في ليلة بلا أقمار اصطناعية، تشردت فيها البدايات، واستعجلت نهاياتي اللعب، على ميزان الخوف. كانت الطرقات مغلقة، صفوف من طوابير الملائكة والفراشات أمام المعبد الجديد، صفوف كسولة، تجلس على ظل رهقي، عطرتني بنكت مستورة من بحار بعيدة، يقول الكون أنه أحضرها ليدسها في صندوق المعبد السحري، في بيتنا القديم، على ضفاف النهر.
الأبواب تُطرق، فلا يدخل أحد، أجعل الباب الأول مشرعاً للجنون، أحدث الملك أن لا يقص عليّ القصة، أو أن يطرد الأحلام عن زوبعة الفراشات المتمردة بالاستسلام، تهرب إلى ملاذها الأخير، عند ناحية الحديقة الجديدة في معبد أبادماك.
أفكر هل كانت الفراشات سيئة المزاج؟
قبل أن استرسل في الفكرة، افهم حاجتي لاحتساء كوب قهوة يهلكني، استيقظ في الفجر، أو ربما لم أنم، أفك سروالي، أفرغ

شاحنة المنـي المطـاردة فـي قطـارات الوجـود، أولاداً يتطايـرون علـى ملـة الملـك، يضاحكهـم، ينكسـرون بالحـزن فـي وشوشـة المـوج، عنـد النهـر.
حدثني الملك:
«حلف الأنهار والفراشات لا ينهزم»
لكننـي صدقـت عقلـي، يرسـل شـارة الضـوء النافـذة، ويجـذب رحيـق الزهـر عـن أنفـاس الفـراش، قبـل أن أرى روحـي مـن قصـب السـكر، غلافـي مقلـوب، أسـناني محطمـة بقيـود اللسـان، أمـام جلالتـه، سـطوته، كان النهـار لا يضحـك، والمـرآة تعانـد وجـه الملـك، وزهـدي فـي لقـاء سلوى ينفصـم بهيـل مريـم، تسـد قواربهـا عنـد ضفـة النهـر، مـع جاريـات الكهنـة الجـدد.
سـلوى هـذه الجاريـة المعذبـة، ترغـب فـي تدميـر العالـم، علـى شـكلها الخـاص، شـكلي أنـا، وحدتـي، ترقـص كمـا الفـراش، علـى قلبـي، تهدهـد الشجن القديـم، علـى رائحـة احتـراق البخـور النوبي فـي غرفتـي، مع شـوارد الغضـب النـازع لشـهوة الزمـن الـذي مـات، لـون المسـاءات فـي البجراويـة، ربيعهـا الأزرق، هـذا الباهـت، الـذي لا ينـام إلا علـى وسـادات الرمـل، يرسـم مجـده الضائـع، يحدثنـي أنهـا لـي.
لـم أصـدق، رمـال النهـر، لا تصـدق، سـلوى أكبـر مـن كـل الأكاذيـب، ومـن لعنـة الملـوك القدمـاء، سـأدخل إليهـا الليلـة، سـأكون خائفـاً، أطـارد ظلـي، سـأعاندها، لنرحـل معـاً إلـى بلادنـا المفقـودة فـي الرمـل.
أشـياء تحاصـر الذاكـرة، فيصبـح الوقـت وقـوداً للحاجـات العصيـة،

انتهيت من التمرين الرياضي، الصباحي، طالعت قرص برتقالة الشمس، وراء الشوارع وأعمدة الكهرباء، ما بعد ليل مطير. لسبب ما كان عليّ أن أتذكر جملة أحوالي في الأيام الأولى من انضمامي لطائفة الملوك.

في تلك الآونة، لم تكن سلوى قد تبلورت بحجم الآن، مجرد حمل لطفلٍ سيئ المزاج، يدخل المدينة مساء بالقطار، متأملاً العالم، مستعيناً بأوجاع طفولته، يحاول بها استصلاح مكامن البور في جسده القذر، محو ماضيه، ينشد تطلعاته في جحور الدواهي.

٢١

أوقفني الشرطي، عرف أنني غريب، سألني عن بطاقة الهوية، ظللت ساكناً، صامتاً، أؤمن بأن الصمت يحل عقد الناس، لكن ليس هنا، فالمكان يبدو أكثر اضطراباً من توقعاتي الخاطئة، ومن الصعب عبور الليالي سالماً، فالجسور محروسة بالأوغاد، البلد تعيش قلق تغيير النظام، والنهر مسكون بهاجس أن يسافر شمالاً، كل شيء يفر نحو الشمال، إلا محمد، فقد جاء للجنوب، من أجل يكون ملكاً مزيفاً.

قلت للشرطي:

«أنا ابن الملوك»

ضحك:

«أي ملك؟»

حدثت نفسي:

«الجميع يعرفون الملوك، هذا الشرطي الأهبل، لا يعرفهم؟»

كنت أعتقد أن معرفتهم واجبة على كل إنسان، وبعد أيام فهمت أن الملوك ليسوا إلا مجرد ثقوب في إبر الدنيا، لا يخيطون، ولا يمررون الخيط إلا بأيادي العبيد.

قضيت الليل في المخفر، أنا ذلك الولد المسكين، اطلقوني في النهار للريح، أحاول أن أزيح هاجس الملك، أتذكر كلمات سلوى:

«المرء لا يصنع حياته إلا بنفسه ولنفسه»

حدثتها عن تفاهتي، وعن بحثي عن دليل لمغزاي.

صرخت:

«حياتك ملك لك وحدك، حريتك، لا تقهرني بالرعب»

ودائماً ما عذبتني سلوى لكن خلاصة العذاب، كانت فراراً لذيذاً إلى دنيا جسدها. فررت لأصنع حريتي، أتعلم أن سعادة الملوك لا تكون بغير النساء، حتى لو كسبوا كل الرجال.

مع سلوى، لاحقاً، مضت السنوات، لترمي بي الحياة في مزابلها الوسخة، كرهت اشتياقي للمعرفة، وتسربت أحلامي في إقامة مملكتي الجميلة، هناك عند ضفة النهر، في وطن أجدادي، الذين رسمتهم ذات يوم.

٢٢

عدت إلى غرفتي، أحصيت مكامن الخوف فيّ، تخلصت لسبب مجهول، من كل الأوراق التي تتصل بماضي السوء، دخلت الحمام، تغوطت، عادة رذيلة أمارسها، حتى لو كنت ملكا.
أشعلت سيجارة أفكر بمريم، فأزيحها بسلوى، أكره أخي مرجان وأجدادي، تتخفى سلوى، رغم وجهها المحفوظ لي، كان العيد قد ولى، وبدأتُ التفكير بجدية في هجرتي خارج الوطن، سلوى علمتني هذا النوع القاسي من الأفكار، وأنا أدس ذكري في أنوثتها.
لم أكن قادراً على مدافعة الفكرة، أقلقتني كبول ناري يعتصرني، لم أعد مستسلماً لمواجهة جحيم الحياة تحت شمس الخرطوم، الغبار، الليالي الطويلة التي لا تنتهي بسيقان مؤرقة، أغلقت باب الحمام، خرجت مواجهاً فراغ البيت، أصوات ما تناديني، لا استجيب لها، هؤلاء الملوك السخفاء، يريدون إعادتي لدورة سخيفة، جديدة، من حياتهم البلهاء، لن أستجيب لهم، لن أدخل في طاعتهم، سأصنع حريتي عبداً.
علمتني سلوى أن الرغبات السيئة يمكن القضاء عليها بقراءة

الشعر، وأنا لا أفهم إلا في الرسم، في هذا الصباح سأقرأ شعراً، شاءت رغباتي أم لا، أريد شعراً طازجاً، مطهي بفنون الزمن الجديد، لا أريده غثاء، تذكرت أشعار سلوى، بدأت في قراءتها:

أحاورك أول الفجر
عصي أَنت
بمثل اكتشافك كان المساء
هل أنت موضع سجودي؟
أم فصول مطرك الجسدي؟

أرمي الأوراق، أعاين خلال نافذة الشارع، قلبي يدق، يبدأ الصبح استياء، يتقدم وجعاً قاتماً، أفرد أوراقي بشهوة الرسم، تطل عليّ من النافذة، تغني:

وأنت آخر ما يرصد النائمون
وأول ما يحلم الحالمون

خرجنا سويا، اشترينا صحيفة صباحية، قالت لي:
«تجارة الصحف أصبحت كاسدة»
لم أقل لها أن الناس لم تعد تهتم بالأخبار، تشغلهم أخبارهم، صنعوا ممالك وحدتهم البائسة، قرأت أفكاري، فقاطعتني:
«كل إنسان يصنع حلمه، دولته، مملكته، ودستوره»
دخلنا مبنى البريد، وراء عمارة شائخة، فتحت الصندوق، لم

تجـد مجلـة جديـدة تنتظرهـا، أغلقـت الصنـدوق بعنـف، هربنـا مـن وراء العمـارة، ضمنـا الشـارع العريـض، أخرجـت صنـدوق السـجائر، أشـعلت سـيجارة، وبـدأت فـي الغنـاء تحـت المطـر، أشعر بسعادة غامرة، حرية أخـرى مكتسبة، جذبت نفساً ضحـلاً، أعايـن مـن بعيـد، أفكـر فـي سلوى، متـى ستعيش معـي إلـى الأبـد ؟ الشـارع معبأ برجـال بذقـون وجلاليـب بيضـاء، عمـم وقفطانـات، تذكـرت صديقـا قديمـا يعمـل فـي مؤسسـة جـوار البريـد، علـى بعـد أمتـار تبـدو اللافتـة القديمـة، ذكرتنـي بـه، تشـبه غفلتـه فـي الحيـاة، وروتينـه الممـل فـي فهـم العالـم، لا يصلـح إلا لوظيفـة كاهـن فـي مملكتـي، يـؤدي فـروض الخـوف، ويُعمـد أشـيائي.

٢٣

كعادتي في الهروب، هربت من سلوى بين الزحام، دخلت المؤسسة التي تعمل في مجال كتابة التقارير السرية عن الحياة الجهرية، وأنا أدخل عبر الباب الزجاجي، تذكرت هدفي من هذه الزيارة التي جاءت فجأة، أن يساعدني صديقي القديم في استخراج جواز سفر جديد، فجوازي ممنوع من السفر، لأن موظف الجوازات الغبي، كتب في خانة المهنة: ملك.

وقفت أمام موظف الاستقبال، حليق اللحية، سألني عن بطاقتي، تأملها، قال لي برعونة:

«أنت ملك»

كانت مهنتي مكتوبة على البطاقة: رسام.

غضبت من طريقته في القراءة المتوهمة، ومن لحيته الحليقة، وسط رجال تجمعوا في الفراغ بلحى طويلة، كلما عبر أحدهم لمكتبه، وقف الموظف بأدب مفتعل، يقول:

"وعليكم السلام»

رغم أنهم لا يسلمون عليه.

شربت ماء من ثلاجة صغيرة الحجم في صالة الاستقبال،

وضعت الكوب، لأسمع الموظف يسألني:
«ماذا تريد؟»
أخبرته:
«أريد مقابلة صديقي جيلاني»
تشاغل عني بافتعال البهجة، عندما رأى موظفة بخمار وعطر نفاذ، تحمل رضيعها، تدلي حقيبة صغيرة من كتفها، تتجه لمكتب داخلي.
صرخت فيه:
«يا ابن العم»
رفع سماعة الهاتف لدقائق، وضعها، حرك يداه كمنتصر، مزهو بغلبته، في وضع استفزني، يلخص انتظاري الطويل قائلاً:
«غير موجود»
قفزت عيناه بسرور، كنت قد دخلت في أظافري، أذوب، أتحول لقيمة تافهة في كيمياء الكون، أرى من خلال النافذة الزجاجية، التي انفتحت لثوان وأغلقت.. جيلاني، هناك خلف مكتبه، أمامه فنجان قهوة ودوريات بلغات مختلفة، ووراؤه لافتة كبيرة كتب عليها بالأحمر..
«زيارتك تسرنا.. من فضلك لا تدخن»
قناة فضائية تبث مشاهد لراقصات، وملك يحمل رجليه، يهرب إلى الخارج، اكثر حزناً، شاتماً للدنيا.
أخرجت آخر سيجارة معي، أشعلتها، صوت قلق يشاغلني، أيام بعيدة في الذاكرة تتسربل، مثل طفل كنت أمشي بلا هدف.

رابعاً:
الملك لا يمزح

٢٤

في أول فصل المطر، تبتدئ هجرات صغيرة، للطيور، شيء ما اسمه الخدر يلون الفصل، يجلس أركاماني بقلقه على حجر أصم، مراقباً الأشكال، الأشياء في ذاكرته، منذ متى دخل العالم واصبح ملكا؟.. ربما منذ أمدٍ بعيد، قبل أن أكون.

اشتغل بالتفكير في وحدته، صور طلاقه الغريب الذي أعلنه للعالم، تحديه للإلهة، هاجساً بالأفكار، هل يستغني الملوك عن التفكير؟

في وحدته كالإله الأسد، الذي لم يكبر بعد، يراقب النهر، الجاريات، الكهنة، الأطفال، المملكة الممتدة، تستحيل مراقبته لحزن شجي شفاف، لتصورات بلا معنى، يرى الطيور المهاجرة، سلطة الغيب، يحس بغشاوة تغلف أيامه الأخيرة في العالم، هالات مفتعلة متكررة، تبرر غايات الأشياء، توجسات عظيمة تجعله يستغرق في توحده، يركل الأوهام

المتصدعة في الذاكرة، من زمان طفولته، محاولاً أن يجد لذة تغنيه عن محبة الناس.

عشرة أيام مضت، يعدها بأصابعه، يكرر العد، يتذكر شهوة الأكل والجنس، والافتراء الكاذب على الذات، أن تشعر بأنك ملك، وأنت غير راغب في هذا الشعور، أن ترى الفوضى، وأنت تعشق النظام، أن تكره العالم، وأنت تحبه، لا تريد ان تغادر نزيفه الأحمق.

هل كان فصل المطر قد بدأ فعلاً في مملكته المتوحشة؟ في أطراف الصحراء، على الشاطئ، أم في ضباب عينيه الكسولتين عن الرؤيا، لا يجد فرقاً بين الحلم والواقع، سلطته أو لا سلطته، على الشعب والنهر، ينسى كل ذلك، معايناً الفراغ، بقايا من مطر الأمس في ساحات القصر المزهرة، طيور حطت بعد هجرتها، هل جنت طيور البجراوية، متى سافرت ومتى عادت؟ لا يهتم بها كثيراً، يحلم بحكم مملكة من الطيور، بدلاً للبشر التعساء، هل ينزع الملك جسده، وكيونتته؟ يصبح طائراً جميلا في قصر الملك، يستبدل النهايات بالبدايات الأزلية، في تصورات غير جادة للكون، الذي ليس بمقدور أحد أن يعلمه كيف يسير في مجرته.

تصورنا للعالم، يبدأ بما تراه عقولنا المريضة، ذواتنا العاجزة، أركاماني يحس ذلك، أن البشر محطة سيئة في ميراث الوجود، سوف تأتي أزمنة ليستبدلوا بكائنات مفيدة، العالم لن يعود محتاجاً لهم.

هجس فيه شيء ما، ذكره بمرآى المدينة القائمة بين فخذي

النهر، كم هي لذيذة وقاسية هذه المدينة؟ سحرها لا يستسيغه، يرفع يديه للسماء، لإله الشمس، ينسى إلهه الجديد:
«أسكنني في مستنقع روحك، كم أنا ضال!»
في منظر المدينة، تتكاثف سحابات من هلام الخيال المدوخ، عمارات شامخة، ناس يركبون سيارات فارهة، خيول عليها رجال بسيوف لامعة، تطارد رؤوس الرجال في معركة دامية بدأت للتوّ، يطرد الصور عن ذهنه، لا يحب الدماء والحروب، يخاف أن تشهد الأيام المقبلة حرباً في المملكة.

٢٥

تخلص من صور المعارك، استبدلها برسومات في معبد أبادماك، أفاع، نجوم، دوائر، جواري غارقات في النشوة، كهنة محشوين بالنفاق، شعب لا يفتر عن الحراسة، ملك يخاف نفسه وتعاسته، خطوط غريبة تنتهي بذيول أسود، رؤوس لعبيد عراة، غول يجثم على صدره، لوحة كتب عليها بالطين..

«أدخلوا دار السلام»

يطارد الرسومات، يعاود افتعال منظر المدينة من سور القصر، يرى بيوتا طينية تتسامق، تكبر، تقوم، لها أظلاف نعاج من الصاج، من كل ظلف يخرج دخان، ومن بين الدخان تقوم نافورة دم عالية، تضيء السماء بالدم الأحمر الساخن، يسافر الدم جنوداً، أشقياء، تعساء، مغلفين بالمرارة وكراهية العالم، يغمرون الدنيا، بالفوضى.

يلعن الإله، يستغفر ذاته، يقوم من عند الحجر الأصم، يراقب آثار موضع جلوسه، يبصر أشكالاً لطيور ستهاجر بعد قليل، كم تدوخه هجرات الطيور عن مملكته، هل كرهت البقاء هنا، هل رأت ظلاماً وظلماً للعبيد؟ لا تتخذ الطيور طريقها إلى النهر،

تهرب إلى قلبه، وراء الصحراء، وراء الغابات الملتفة كنساء خائفات.
بمزاج الطيبين، يعبئ ما بين الفينة والفينة، بالصمت على الكلام الجارح، يعاين حوله، لا يرى إلا وجوه الحراس، كالحة تتحداه، يخافها، يفكر في فعل الملوك، يعزم أمره، يتوكل على أبادماك:
«سأقتلهم وليكن ما كان، لتكن نهاية المملكة، نهاية الرجال المكفهرين، أوغاد الزمان».
يبصق على وجه الحارس الأول، الذي يحبه صادقاً، بعنف، يواجه الحياء الداخلي للملك، يناضل ضد حيائه، يكوّر أحاجيّ أدخرها في ذهنه كرة سوداء، مليئة بالرعونة والغضب، لمثل هذا اليوم، يشير بإصبع واحدة، تجاه المدفن، يهتف:
«من يقف في طريقي، فدربه إلى هناك»
لم يصدق الحراس، اعتبروها مزحة من الملك، هو لطيف وقادر، لكنه سهل الحمل، عودهم الضحك بلا مناسبات، منذ طفولته يضحك، في قلوبهم، ويشفقون على ضحكه.
بصق ثانية، كرر ما قاله، أحمرّ وجهه، رأى رؤوس الحراس أشواكاً لنباتات صحراوية تُعمي العيون، طارده فزع وعرق، خاف من المواجهة، لكنها حدثت..
«هل يخاف الملك عبيده؟»
فكر أنه ربما كان يحلم، فعادة ما تنتهي لحظات مواجهته في الحلم بالصراخ واليقظة، أدرك أن مجرد تفكيره بهذا الشكل يعني أنه خائف، ضعيف، متوجس، عبيط، قاوم الخوف

بتمزيـق الحـارس الأول بأنيـاب الأسـود فـي حديقـة حيوانـات القصـر، لهـث معهـا هسـتيرياً، يحـدث نفسـه:
«أنا الملك المسكين»

٢٦

قبل أن يحدث هذا التحول في حياة الملك، كان هادئاً، يظن أنه محبوب لدى شعبه، يخال ذلك، فالملك لا يرضى بغير الحبّ، الحب الذي لا يكون مثار شفقة، لكن كل شيء قد تغير الآن، بعد أن رأى رأس الأفعى، الخروج على الطاعة، شاهد من وراء السور، ما كان يتخيله حلماً في البداية، حلم من أحلام الملوك التي لا تنتهي، هذه الخيول وهؤلاء الرجال بسيوفهم اللامعة، كانوا واقعا، عليه أن يحترز، أن يطارد رؤوس الرجال في معركة دامية ستبدأ الآن، يتخلص من الحراس الخائنين، يستبدلهم بمن يكن له الحب.

«هل في نفسك كل هذا القيح والصديد يا سيدي أركاماني؟»

سألته..

وقبل أن اسمع الجواب سألته ثانية:

«أين كنت تخبئ هذا الجمال؟»

ضحك، عرفت من ضحكته أنه فهم، اكتشف لأول مرة سر العالم، كم ظل سنوات طويلة، يحلم بمعرفة السر، ها قد عرفه اليوم، السر أن تكون جبارا وقاهرا، أن تتطاول، تتحدى البشر،

تقتـل، تسـفك، لا ترحـم، تسـبي، تتـزوج مئـات النسـاء فـي ليلـة واحـدة، تقضـي وطـرك منهـن، تقتلهـن، تتـزوج غيرهـن، العدالـة كذبـة كبيـرة، والحريـة باطلـة، حريـة الملـك فـي تخويـف شـعبه، بالدمـاء، بالخيـول، بالرعـب، فـي الـزج بالنـاس فـي السـجون، فـي نفـي الخارجيـن عـن قانـون الملـك، فـي الاحتـراز الدائـم، أن كل النـاس أعـداء لـك وعليـك أن تقتلهـم قبـل أن يقتلـوك.

«يبدو أنك قد عرفت ساعة الحقيقة...»

لـم يتركنـي أكمـل، بـدا عنيـدا، ملـكا، لا كمـا عرفتـه وحملتـه طـوال حياتـي:

«سـأتقيأ تاريخـي، أكتـب أسـطورتي، وحتـى لـو مـت قتـلاً لـن أنـدم، هـل تظننـي أنـدم؟ لا»

بإمكانـي أن أشـك، أقـول، هـي لحظـة عابـرة فـي حيـاة الملـك، سـتنتهي بعـد قليـل، سـيعود كمـا كان، جميـلا، طيبـا، محبوبـا، قطعـت شـكي برؤيـة الدمـاء، تتدفـق إلـى النهـر، وصراخـه هائجـاً:

«لـم تعرفـوا معنـى حياتـي بعـد، أنـا اليـوم اعـرف المعنـى، أيهـا الشـعب الجبـان، لـن تخيفونـي بطاعتكـم الكاذبـة، طأطـأة رؤوسـهم القـذرة، لا شـيء يبقـى بعـد الملـك ولا قبلـه بقـي شـيء، أنـا الأول والآخـر، السـطوة والسـلطان، النـار والجنـان، الجـن والإنسـان، الحلـم واليقظتـان، البـرد والحـران، أنـا الشـيطان، أنـا الملـك الـذي لا تعرفـون مـن يكـون، أنـا مـن كنـت قبلكـم، وأكـون بعدكـم»

٢٧

أحياناً يتحول الحب لكراهية قاسية، هذا ما فكرت فيه، وأنا اسمع خطاب أركاماني لممالك النوبة، حتى شككت، في يوم كان مقداره خمسون ألف شكاً، بوجود مفردة الحبّ في هذا العالم، لو كان هناك حب، فهذا يعني انه يبدأ كراهية ناقصة، تكبر لتبلغ ذروتها، يعني أن الحب هو البذرة التي تنمو منها شجرة الكراهية، نعيش سنوات طويلة نتأمل الشجرة، لنكتشف أنها مزيفة.

لا أنكر أن أركاماني، ذكي وشجاع، هو أكثر من يستحق صفة الملك في هذه المملكة، في هذا العالم، لكنه عاش طفولة، اختزنت كراهيته المستبطنة للعالم، حبه للناس والأشياء، كان مزيفاً، كبر الآن ليفهم، لينفي الوهم الذي عاشه، يقتل فكرة عبقريته الكاذبة، يفهم أن هناك من هم أذكى منه، من يفكرون في صفة الملك، حتى لو كان المُلك متوارثاً.

"هي الأيام يا محمد، تضيء للملك ظلمات ذاته، ليرى الجوهر، ويكتشف كم يضيق هذا العالم بالحبّ»

قال لي هذه العبارات، بأسى شديد، كأنه نادم، على المجزرة

التـي انتهـت قبـل قليـل، علـى كل حياتـه، طفولتـه العنيـدة، خسـارته المغفلـة فـي شـكل الكسـب، أحسسـت أن وراء عباراتـه، تراكـم لهمـوم لـم تمـت، يـوم لـن يغفـر، يـوم مواجهـة الرجـال، تشـريد عواصـف الحـزن الهائـم فـي الـذات، يوحـش مسـارها.
كان يومـاً مشـهوداً، وقـف فيـه أركامانـي عابثـاً فـي وجـه تاريخـه، فـي تاريـخ وجهـه، ساعة عبور صادق مع الـذات، كتـب عنـه ديـدور الصقلـي يخـط:
«عندما شـردت عواصـف الحـزن ووحشـة الـذات الملـك أركامانـي، بعـد عـام واحـد من تنصيب الإلـه الجديـد، عبـث الملـك بمملكتـه، رغـم حـب الشـعب لـه، كان كمـن يحـدق فـي كابـوس المسـتقبل، المجهـول، خائفـاً، وقيـل أنـه كـرر القـول، لا أدري مـا أنـا فاعـل، ولا أدري مـا أنـا مفعـول بـي، ولهـذا سأسـتبق الفعـل علـى المفعـول، وليكـن مـا كان، دائمـا يسـتخدم عبـارة كان، ليوصـف مـا سـيكون، حتـى يقـول بحتميـة الوقائـع»
لـفّ أركامانـي أحلامـه المعلقـة، فـي لفافـة أخـرى مـن الزمـن، صرخ يهـزي كالمجنـون، ارتفـع ضجيـج الشـعب من حولـه، وثقـوا قدميـه، يديـه، عصبـوا عينيـه، رمـوا بـه فـي النهـر، ليغيـب إلـى الأبـد، فـي بيـت أجـداده القدمـاء، لـم يأسـف عليـه أحـد، لكـن التاريـخ تذكـره، سـأحزن عليـه كثيـراً، حـزن يخيـم علـى جسـدي الهـش، سـأنتصر لـه، شـاءت المقاديـر أم أبـت، فالملـوك وحدهـم، الذيـن يصنعـون المقاديـر.

خامساً:
فرقة عسكرية تعزف موسيقى الفراشات

٢٨

تذكرت كل ذلك وطافت بي الخواطر وأنا وحيد أقود سيارتي ماركة «الجيب»، أشق بها الطريق البري الذي قام حديثا، عابرا موطن أجدادي، في طريقي إلى مسقط رأسي، أسأل نفسي: «هل مات الملك حقاً؟»

كنت كمن خرج من ذلك المكان المظلم، إلى نور العالم، فراغ الحياة بكل ما فيها من تبلد للإحساس والمشاعر تجاه الذات والآخرين، أرى في الرمال من حولي، صورة ذلك الطفل المسافر على راحلة الوحدة، هل ينجح رجل مثلي في ركوب الزمن السيء، يسير إلى غايته وبر أمانيه؟

أصبحت أقضي جل وقتي بعيداً عن الناس، أخرج في الفجر الباكر إلى الصحراء، وراء البيوت الطينية ذات الظلال الباهتة، أعود في المساء إلى بيتي، سجني، كانت الصحراء ملاذي الأول والأخير، فيها ومنها تعلمت حكمة التحديق في المطلق،

الصبر على عداوة الزمان والملوك، فالذي لا يحتفل بالصحراء، ولا يقدسها، لا يدرك سر غربته ولا عرف الدنيا.

أكثر حنيني، وأنا أتجول بين الرمال باحثاً فيها عن صور الماضي، أن أرى ذلك الملك الذي هرب مني ذات نهار، دون أن يحمل عني جزءاً من هموم الحياة، هذا الملك الذي لم تلد النساء مثله، كنت أحبه، مثلما أحببت سلوى أخيراً، بعد أن مارست عليّ حيل النساء في صيد الرجال المشغولين بالتوّحد.

مع لمعان ضوء الشمس على الرمال، يبدو وجهي ممسوخاً، مشوهاً، قادماً من مدن تحت الأرض، خلاصة سنوات من سفر طويل في المجرة الأرضية، لم أنظر إليه، نظرت إلى داخلي العميق، إلى سلوى، تنتظرني هناك بعد أن رتبت لي الشقاء، هجرتي خارج الوطن، وسمتني الغجري الذي سيأتي يوماً ما من وراء البحار بجيش الفتح الأعظم، تقول ذلك أمامي وتضحك، لم أكن متأكداً، هل كانت ضحكتها سخرية أم رغبة في المزيد من عناء الحبّ؟ أم كانت تظن أن مملكتي المتوهمة ستنمو في الصحراء؟

٢٩

أراقب الضوء، تحاول سلوى أن تجدني كائناً غير مشوه، تفرغ أحلامي من التيه والضلال، أرغب في بعض اللحظات، أن أغربلها عن روحي، أمسح ذاكرتها عن ذاكرتي، لأكون وحدي كما كنت، أدخن، أثرثر على راحتي، أدخل مدن الأسمنت كما أشاء وأخرج منها غير نادم على خروجي، على مغادرتي لمقاهي الليل، والفنادق الضحلة.

اعتصرت الألم، غير قادر على فعل شيء مفيد، أفكر في الهروب الحقيقي إلى موطن الأجداد، أبحث عن إلهي الجديد، عن بنت حلال في قصر الملك، حتى لو كانت جارية سوداء، لن تقيدني بمناهج المسجد والحانوت والبيت، سأعيش معها مطمئن البال، أنقذ رغبتي الصادقة في العيش الخفيف، لا أشعر بالأسى أو النزيف الروحي، لكن التراجع كان يعني الهزيمة، أو ربما الموت القاسي الذي لا يحتمل.

تناسيت ذلك، أو ربما نسيته حقيقة، بدأت أرسم على الرمال من جديد، هذه العادة الطفولية التي لن اتركها، ومع الرسم

كان لقائـي مع أجـدادي فـي البجراويـة، جـاء نهـار أجمـل مـن كل النهـارات التـي عشـتها بـلا هـدف، لـم يكـن لـي أمـل فـي حياتـي، فجـاء الأمـل، ومثـل كل النـاس، أصبحـت أفـرح لأقـل الأشـياء. انتبهـت لأصـوات الأبـواق الضاربـة والطائـرات الصاعـدة فوقـي، وصـوت الملـك يحدثنـي:

«الطائرات تذكرك بالحرب يا محمد؟»

أنظـر إليـه باستغراب، ينظـر إلـيّ بشـفقة، كأننـا نتعـرف علـى بعضنا لأول مـرة، كان الملـك فـارع الطـول، جميـلاً، مملـوءاً بالزهـو، فـي عينـه اليسـرى حـول، لا يلاحـظ إلا بالاقتـراب منـه، كنـت أمامـه لسنوات، لكنـي لـم أعرفـه إلا اليـوم، مع صـوت الأبـواق والطائرات. هبطـت الطائـرات، ومعهـا نزلـت فرقـة عسـكرية تعـزف موسـيقى الفراشات، تكلـم رجـل ضخـم الجثـة، يشـبه رئيـس الكهنـة، يدعـو الشعب لاسـتقبال الملـك، دون أن يحدثنـي، متـى عـاد الملـك مـن قبـره فـي النهـر.

٣٠

لأول مرة يكتشف أهل البجراوية أن لهم ملك، جاءوا من كل بيت ومزرعة ومعبد، رجالا ونساء وأطفالا، رقصوا مع الموسيقى، وحلموا بحياة جديدة للملك، زغردت النساء..

«أي .. يو .. يو .. يا»

ارتفع الأطفال فوق أكتاف الرجال، ليشاهدوا ملكهم، هتف الناس بحياة أركاماني، ذبحوا عند قدميه ثورين ضخمين.

مشى الملك بزيه الأخضر اللامع تحت الشمس، فوق الدم، أرخى يديه، صبغهما بالدم، راح يضرب بهما على أكف الأطفال، الذين تصايحوا بشكل هستيري لطربهم.

عصراً، ركب الملك الطائرة، ذهب، وسألته قبل الرحيل:

«البجراوية مكان معزول عن العالم، فلماذا يأتي إليه الملوك؟»، لم يجب عليّ، انطلقت في وحدتي، أواصل الرسم على الرمال الساخنة. رسمت مدينة جديدة في الصحراء، على ضفة النهر، شوارعها مضيئة، خزانات المياه فيها كبيرة الحجم، يصل ماؤها لكل البيوت.

بعد أيام عدت للاستياء مجدداً، أعيش بلا هدف، أدغدغ

العينين، لقد ترك الملك بغيابه، فراغاً كبيراً في حياتي، نسيت طريقتي في الحياة قبل مجيئه إلى هنا، ومن على البعد، من عند الرمال الساخنة رأيت قاربه الشراعي على النهر، طاردت القارب، تمتلكني رغبة في تفكيكه خشبة خشبة، كنت وحدي الذي يعرف مصدر هذا الخشب النادر، الذي لو بيع، فإنه سيحقق لبائعة ثروة ترفهه مدى الحياة.

سادساً:
الإطارات غائصة في الرمل

٣١

غاصت إطارات سيارتي في الرمال، قبل مغيب الشمس، لا أدري أي سبب جعلني أفارق الطريق المعبد، لأجد نفسي وسط واد من الرمل الجبلي.

دخل الظلام سريعاً، ومعه باءت محاولاتي لإنقاذ الإطارات، بالفشل، استخدمت كل ما لدي من حيل، واستعنت بحيل الأجداد الملوك، ولكن دون جدوى، وفي نهاية الأمر استسلمت لما كان، أن أبيت الليل في المكان، لأرى ما سيحدث في الصباح.

الجو بارد، جعلني أعاني كثيراً، دخلت السيارة، أغلقت الأبواب بإحكام، لم اكن قادراً على النوم، كان الخوف يحاصرني، من أن يهاجمني أحد قطاع الطرق الليليين، بدأت أسلّي نفسي بالحكايات، كانت هناك سيارة يقودها أخي مرجان، وكنا في طريقنا إلى الخرطوم، بعد نهاية عطلة عيد الفطر، وكان معنا،

مـن كان معنـا؟!

كان الطريـق البـري المعبـد لـم يشـيد بعـد، الـدروب صعبـة وموحلـة، مليئـة بالمفاجـآت، مناطـق تتفـاوت بيـن الجبـال والرمـال، هنـاك احتمـالات للتوهـان، مـن لا يتذكـر الطريـق جيـداً لا يصـل، هـذا إذا جربـه مـن قبـل، ومـن لـم يجـرب سـيموت عطشـاً وجوعـاً.

٣٢

مرجان يحكي عن صراعاته مع الحياة، التي تشبه هذه الدروب الصحراوية المضللة، يحلم بمغامرات كبرى في العالم، وأحياناً يتذكر طفولته ومريم.

يمضي الليل، نقاومه، أقاومه بالحكايات والثرثرة بصوت عال مع الذات، بان ضوء الصباح، كانت الساعة الخامسة، صليت الصبح حاضراً متيمماً صعيد أجدادي، انتظرت لساعة حتى طلعت الشمس، أصبح بإمكاني رؤية الأشياء بوضوح، الإطارات غائصة في الرمل، إلى أكثر من منتصفها، كيف سيكون بمقدوري إنقاذ السيارة، لأواصل رحلتي إلى مسقط رأسي.

لا شجر ولا بشر على مدى البصر، حفرت تحت الإطارات، أزيح الرمل، ومن ثم حفرت مجرى طويلا يمتد لمسافة تفوق عشرين متراً، ركبت السيارة، شغلت ترس القوة، بدأت السيارة في الحركة، كانت تتحرك لنصف متر وتقف، لتغوص في الرمل من جديد.

أكثر من عشر محاولات باءت بالفشل، تقدم الوقت، الساعة تجاوزت التاسعة صباحاً، شعرت بالجوع، تذكرت أن معي بيضا وقطعا من الجبن، أكلت كثيراً، فقد كان الطقس بارداً، والشمس لا تغسل المكان بالحرارة، كما أنني بذلت طاقة في محاولة اقتلاع السيارة من الرمل.

أشعلت سيجارة بعد الأكل، دخنت، أشعلت أخرى، نسيت وأنا

أدخن، السيارة التي غاصت في الرمل، الوقت الذي يمضي، رحلتي في هذه الدروب الشائكة في مواطن أجدادي، رحلتي في الحياة، ليس ثمة أملا يلوح لينقذني، وأن أنجح يوماً ما في اقتلاع الحزن عن رمل ذاتي.

قمت، تكررت ذات المحاولات، بلا جدوى، انتصف النهار، تحول البرد إلى حرارة لاذعة، شعرت بالإعياء والتعب، تصببت عرقاً، ماذا أنا فاعل؟

في لحظة، وجدت نفسي غير قادر على فعل شيء سوى الاستسلام، وزاد من يأسي اكتشافي المذهل، أن وقود السيارة قد نفذ مع محاولاتي الفاشلة للخروج من وحل الرمل، في حين لم يكن معي وقود إضافي.

أصبحت تحت تصاريف القدر، قد أواجه الموت، إلا أن يحدث أمر خارق، وهذا مستحيل، كنت قد ضللت الطريق، فمن غير المعقول ان يأتي أحد عابرا هذا المكان.

أحياناُ يكون وجود المرء في الحياة، مجرد ورطة، تماماُ كما أحس في هذه اللحظات العسيرة، لا قرار شجاعاً يجدي، ولا تجرداً عن المبادئ، يستوي الأمر، أن تكون ملكاً أو كاهناً يعمل في خدمة الملك.

إذا كان العالم من حولك، يشحنك بالكراهية والبغض والأنانية، فإن مثل هذه المواقف تجعلك كائناً مجرداً من كل معنى وعن كل حبّ مزيف، تلتهم الوهم لتواجه الحقائق، حقائق هذا الوجود القاهرة، كيف بإمكان قيم الجمال أن تسقط فجأة، تتغير الملامح المألوفة للأشياء، وللذات، لن يعود العالم كما

ألفته.

أحتاج إلى ذلك القرار الصعب، المفقود، لأصنع معنى وجوديا في التيه، أتحسس طاقاتي المخبأة وما أحمله من إمكانيات ومواهب كاذبة، في زمان غاب فيه الرضى، وماتت راحة الضمير، في زمان آخرٍ، في لغة أخرى للإنسان، لغة تباعد ما بين الحلم وخيبة الأمل في الحاضر والمستقبل، فينفصلان، انفصال الروح عن الجسد.

أرى حلمي مشعاً مشرقاً على الوجود، راحة بال تقتل خيبة أملي في ضميري المتقد بكراهية العالم، ولا أحفل بقبح ما حولي.

٣٣

بيـن غيـاب الراحـة والمعنـى، أظـل وحيـداً، تائهـاً فـي الصحـراء المتسـعة، لا ممالـك لـي فيهـا، لـي مملكـة روحـي الفانيـة بعـد قليـل، أنـا الملـك الأوحـد، يبحـث عـن رضـاه فـي وحدتـه، هـا قـد وجـد الوحـدة، وحصـل العـذاب، يمشـي لا دليـل لـه فـوق رمـال تتسـع، تمتـد بعـرض وطـول المجـرات المجهولـة.

مثلـي كان يحلـم أن يكـون، لكنـه عجـز، كان ممتلئـاً بحـب العالـم الـذي تحـول لكراهيـة كبيـرة، تحـول التعايـش والتمـازج مـع الألـوان الصاخبـة، إلـى شـارات بـلا مغـزى، تكـرس البغضـاء، تقطـع حبـال الزمـان القديـم والجديـد، علـى غيـر مـا ميعـاد، فـي برهـة تنكفـئ فيهـا مواعيـن الجـدوى والرغبـات، يصيـر كل لـون مـن طيـف الحيـاة أسـوداً، قاتمـاً، يغيـب الهـد والضميـر والحريـة.

مثـل مـا ولـدت بـلا قـرار، أمـوت بـلا قـرار، أفقـد الرجـاء والأمـل، كنـت أنشـد حيـاة أفضـل، حقـي المشـروع، رغبتـي فـي أن أكـون بشـرا علـى الأقـل، لا أريـد أن أكـون ملـكاً، هـا كل طعـم يتحـول لمـرارة قاسـية، حتـى ليـكاد المـوت أحـب لـدى المـرء مـن الحيـاة، بعـد أن تدنـس العالـم بالقبـح، بالأنـا والتوّحـد الجـاد، وماتـت كل أشـكال الشـرور، الغـرور الـكاذب، والفوضـى، ومـن وراء غبـش السـنوات، كنـت أتلمـس موضـع جرحـي القديـم، أننـي أعشـق أجـدادي، رائحـة الخـراء فـي العـراء، وراء ممالكهـم التـي حقنتنـي بالتيـه، هـل كنـت أحـن لخيـام متحركـة مصنوعـة مـن سـعف النخـل؟

٣٤

صوت كلب يجيء ويروح، أزمنة موجعة ترخي رأسها على وسادة القلب الحزين، تحرقه، أسلك طريقي راجلاً إلى المدينة القديمة، وسط الغبار والبرد الليلي، رأسي يسخن بالهموم، أغطيه بشال من القطن، تغطس أرجلي النحيلة في الرمل، ترتفع، الطريق طويل إلى المدينة، أجتاز الوادي المقدس، أتذكر أنه مغلق عند نهايته، فقد بدأ الكهنة في سده قبل أيام، يقولون، يريدون أن يتزوجوا بعد أن قضوا أكثر عمرهم شواذاً، بنوا حجرات من الحجر لزوجاتهم، واستعدوا لإنجاب الأطفال، لسنوات سيغطسون فيها في الرمل، أو يعبرون النهر بعد يأسهم. لم أكن أعرف هدفي بالضبط! لكن قلبي حدثني وسط الظلمات:

«ضوء يأتي من ناحية المعبد، فأسلك الطريق إلى هناك وأنسى طريق الوادي المسدود»

أقسم لروحي أنني سمعت أصوات بكاء، قبل أن أصل المعبد، كنت أجرجر روحي، أدس قارورة خمر حملتها معي في مخلاة صغيرة، دخلت المعبد، وضعت القارورة إلى جواري، ووضعت حذائي عند النافذة، حتى لا يسرقه لصوص المعبد، صليت للإله أبادماك، أتذكر أن حذائي مهترئ، ميت مثلي.

تعشيت في المعبد لبناً دافئا، راقبت من فوق رأس الحائط، جهة الشرق، رأيت الضوء الذي حدثتني عنه سنوات طفولتي الأولى، فكرت فيه بعمق، وكان هو يفكر مثلي، أسأله:

«من مات ومن جاء إليك؟»
راح يعد المرشحين للموت، كنت واحداً منهم.
عاينت موقد الشاي في ناصية من المعبد، اشتممت رائحته تغلي، غلبني النعاس، أرخيت رأسي لوسادة من حجر، تغافلت رغبتي في شراب الشاي، لأنوم، لم يتركني أحد الكهنة وحالي، أحضر كوبين، صب الشاي، تمتم باسم أبادماك، ودعاني للشراب، لكني لم أهتم بدعوته، استعرضت صورة النهر، المزارع الممتدة حوله، سمعت صوت الريح في المملكة، تنفث خارج المعبد، ناديت جوفي ساخطاً، ألعن الزمان الذي جعلني أندم على حياتي ذات يوم، أعيش في عزلتي عن العالم.

٣٥

ضحكت وأنا أتذكر، الملك، الذي سيقابلني في الفجر، ليحدثني عن مملكته ذات التاريخ العظيم، لا أدرك هل قرأ الملك تاريخ مملكته أم عاشه؟! كنت قد قرأته في كتب مكدسة في بيتنا بمسقط رأسي، قلت له:

«عفواً أيها الملك، أي عظمة لتاريخ يضيع فيه المرء دربه»

لم يحفل بي، قام من مقامه على العرش، راقب عيون الكهنة والجاريات، في الضوء الباهت، أشهد أنه جميل، لكن الحياة لا تحفظ الجمال، فالملك سيموت بغبائه، لأنه لم يدرك سر الوجود.

ربما أشياء كثيرة من الماضي البعيد كانت تدوخ الملك، أصوات أرجله الحافية تغوص في الطين اللزج، وقصاصات من أوراق النسيان في الذاكرة، قبل قرون كان قلبه مسرحاً للهوى الجميل الوقاد، أما الآن فقد تغير العالم، خواطره استنفدها هذا الليل الماسي، مع صوت المطر يتساقط على النهر، الماء يداعب الماء، يعانقه، سكون باطن النهر الممتد في مزاجه حلماً قديماً يوم دخله قبل شهر.

اغتسلت من درن الطفولة، عيون الملك لا تفارقني، المملكة

قائمـة فـي المـكان المنخفـض فـي الذاكـرة، تواجهنـي جهـة الصحـراء، مـن بعيـد تبـدو المعالـم كالأحـلام، والرمـال خيـالاً تافهاً، يلتهـم الظـل أشعة القمـر الفضيـة، ذلـك القمـر الميت للتـوّ وراء المعبـد الحجـري، أسـمع صـوت الأسـماك، أحـزان الجاريات فـي القصـر، كان رجـال يقـودون معديـة ويغنـون أغنيـة الشـقاء المدمـر لهـذا القلـب الموجـع.

يتـرك الملـك للوجـع ناصيـة النهـر، يقـاوم لزوجـة الطيـن، يدخـل باطـن المـاء، كحيـوان سـيئ المـزاج، يقـاوم الأمـواج، يحـاول أن يصـل إلـى الأرض التـي تخـرج الدواهـي.

«أليـس باطـن النهـر موطـن العقـارب فـي مملكتـي، وفـي القلـب عقـرب يتلمـس طرقـات الفـراش؟»

يفكـر ولا يواصـل التفكيـر، يكتفـي باستنشـاق هـواء الشـمال بصعوبـة، يحـاول تقيـئ العالـم فـي المـاء البـارد، قلبـه يـدق.

لـم يعـد مـكان النهـر، إلا ترابا حفـت بـه الأعشـاب الآخـاذة، نباتات شـوكية، كانـت العصافيـر قـد ماتـت، رحلت.

«تبدل العالم يا ولدي»

سـمعته يحدثنـي، يحـاول أن يتذكـر كيـف كان ممكنـاً لـه ممارسـة العـوم، يقولـون أنـه كان سـباحاً ماهـراً، يقطـع النهـر مثـل السـكينة، أسـرع مـن المعديـة، أمـا اليـوم فـلا يتذكـر مـن مهارتـه القديمـة أمـراً، أمـام مقصلـة المـوت.

يرتفع صوت النهر في القلب، هل هو القلب أم النهر؟

ينادي من وراء القرون..

«أيها الوجع!»

ترقص أرداف نارية في قرارة لجه، يقاوم الموت، لكنه لا يقاوم، إنه نشيد إلهي رائع للبشر، هؤلاء التائهون. فكّر، ماذا كانوا سيفعلون لولا الموت، لماذا لم يجربه منذ الطفولة، إذن لحقق الراحة مبكراً، لغاب عن سوء الوجود، يسأل الروح:

«أكان العالم هكذا، أم نحن الذين تغيرنا؟»

تلمس موضع الجرح في زمان انقرض في القلب، لم يجده، أصبح تحت الماء، صاح ثم انزلق للأرض التي يسكنها النور، رأسه يواجه قبلة المعبد.

٣٦

فـي مقاومـة النهايـة، يريـد أن يحـدث النفـس بأشـياء كثيـرة، لكنـه ينسـى موضعـه مـن الزمـكان، الأحـوال، رائحـة الـدم تتسـربل إليـه مـن الباطـن، وفـي ذهنـه تتوقـد الحياة بعـد انفجارهـا المتأخـر..

«أليس أنت ابن النهر؟»

لا أجيبـه، لا يكـرر سـؤال الـذات، بغـرور يتحـدى الطيـن اللـزج، يقاومـه، يتذكـر آخـر مـرة كلمتـه فيهـا سـلوى عـن النهـر، قالـت لـه:

«هو قدرك يا محمد»

جـاءت فـي نهـار ضبابـي، تحتسـي العـرق عنـد نواحـي السـوق القصيـة، تعيـش الحيـاة بقلـق عميـق، تتـأوه مـن مسـتقبل شـرس أمـام ناظريهـا، تراجـع صورتهـا، كلامهـا، يـوم موتهـا اللذيـذ، سـاعة دفنـت صـدره فـي صدرهـا، كانـت السـماء تمطـر، يناديهـا:

«يا ملاك يا صاحبة الملك»

يخفـي صوتـه عـن العالـم، لـم يعـد العالـم يسـمع الأصـوات التائهـة، والمـرء لا ينشـد سـعادته إلا فـي وحدتـه.

جـاءت تبحـث عـن أجدادهـا الذيـن عبـروا النهـر، فـي زمـان قديـم، قبـل قـرن، قرنيـن، شـيطان مـن القـرون، لا أحـد يعـرف، قـال لهـا

حارس المعبد:
«الإنسان إذا لم يجد جذوره مات، لأن الجذور هي التي يصعد منها ماء الروح إلى وجدان البقاء، تذكري أن الماء هو أصل الحياة»

سمعته وواصلت البحث عن رأس جدها الأول، الذي قال أنه سيد أهل زمانه في بلاد الصحراء، كان قويا، قهر الزنج.

٣٧

تعـودت معهـا الذهـاب إلـى النهـر، أن تقودنـي كالأعمـى إلـى السوق، إلـى الصحـراء، عرفـت معهـا أماكـن لـم أتعودهـا مـن قبـل، لـم آرهـا فـي عالمـي الـذي كان صغيـراً، فاتسـع، أدركـت أن معرفـة الوجـود لا تكـون إلا باصطحـاب الأنثـى، أوقفتنـي عنـد قبـر الملـك:

«كم هو جميل هذا القبر!»

جمـال الملـك الوقـاد، أو جمـال قبـره، تدثـرا وراء حجـاب القـرون، وبفعـل وقاحـة الـذات دخلـت القبـر معهـا، صافحـت سيدي الملـك فـي منامـه العميـق، حدثتـه عـن قلقـي وفظاظتـي، وجـور الزمـان والسـلطان.

خرجنا، بكت، ترسم على الرمل وجهها بالدموع، تصرخ:

«أليس العالم كتلة من الألم وكومة من الرجاء المنقطع!»

مضـى النهـار المذهـب الـذي جـاءت فيـه، الأشـياء الرائعـة تراجعـت..

٣٨

حملت زفة الملك وحدي، أنتقل بها من شبابي إلى كهولتي، أغني كواحد من هذا العالم، بصوت عذب، يرتفع الغناء في الصحراء وسط الرمال والظلام، أغنيات عربية وأخرى من بلاد الزنج، تتداخل الكلمات والإيحاءات، كان لوني فاتحاً وشعري مجعدا غير مسترسل، صعب النمو.

في أيام الحزن الأول، لم يكن لي عمل محدد غير مشاهدة النهر، أقول للملك:

«يا ملك، أنت ضيفي فلا تقلق حياتي الهادئة بتأملاتك في الماء»

عرفت بعدها أن الكلام يؤثر فيه، كان حساساً، بكى وحده، غضب مني، حدق بوجهه في المجهول، اللاشيء، يقول:

«لولا أني ما أحببتك لما بقيت فيك ليلة واحدة، كل بلاد الله ضاقت بي»

أما أنا فقلت:

«بلادي لا يكرهها أحد، أرض البركة والخير، هذه دعوة سيدي الملك»

مضت نهارات طويلة وليال، كما ألفته، بل عرفته أكثر.

« هل يعرف المرء نفسه؟»

كان يقضي المساءات عند مزار قلبي، باكياً حتى الفجر، أما أنا فأنام مبكراً، أعيش في الظلام مع الخوف، لا أسمع في منامي إلا صوت الريح الشمالية القاسية على القلب.

بحياء شديد، يدخل الملك الماء، أشاهده يقود جاريته سلوى، يدخلها في الماء، كانت تسبح كسمكة، يسألها:
«ملاك هل عندك نهر؟»
تقول:
"وبحر، وغابات، وبشر»
يصيح:
«لا، لا، أنا لا أحبهم، أحب النهر والرمل»
تسأله:
"والموت؟»
لا يجيبها، يواصل قهره للزمان، يقهر مملكته وشعبه، ينادي ملاك:
«يا ابنة الغربة والعذاب»
عاشت معه موجعة، حتى يوم موته مقتولاً بمنجل فلاح من شعب مملكته، في مزرعة مجهولة من مزارع كونه الكبير. قتله فلاح سيئ الظن بالذات والآخرين، هوى بالمنجل عليه، صائحاً:
«أبادماك أكبر»
تدفق الدم يبدل لون الأخضر لأحمر، مصّ الملك شفتيه، وقف مشدوهاً، غمرته فرحة لا مبرر لها، أما الفلاح فهرب إلى المعبد يلجأ لإلهه.
تدخل النهر معه، لكنه الآن يدخله وحده، يغيب فيه إلى الأبد، تغيب ملاك..

٣٩

”هل ماتت ملاك مثل البشر؟»

يسأل الروح، كانت كحلم تسرب في حياته، غاب فجأة، مثل غابة مكتظة بالشجر، زحفت عليها الطبيعة بفظاظتها، بدلتها، لا يكاد يصدق، لكن عليه الأن أن يصدق، يرش الماء على جسده ساعة يهبط طائر، يضرب بجناحيه على الماء.

خرجت من بيتي باكراً، في انتظار أن يدق القلب في لحظة ما، يخفق خفقا كبيراً، يجيء الخفق فيكون عليّ مغادرة العالم، إلى أين؟ لا أدري، فقط عليّ أن انصرف، أما أحببت سنوات طويلة أن أعيش وحيداً، كم رباني الزمان على عادات سيئة كالوحدة، كراهية العالم، البحث عن أهداف بلا غايات، خاصة بعد أن مات الملك، وواجهت ذاتي.

المدينة تبدو من جهة النهر كتلة صماء، معبداً قديماً، متاهة فضفاضة، وهماً كبيراً، لا يسكنه إلا الوهم، تتناثر النجوم فوق المعبد، من تحتها الحجارة التي تسد طريق الذكريات، بصعوبة بالغة أتحدى الحجارة، انتصر لذكرياتي المؤلمة، تاريخي الوقح، كما تصورته، لم أحقق شيئاً مما حلمت به ذات يوم في حياتي، هل يفشل الإنسان أم أن وقاحة الملك تمتطي صهواتهم؟! أسب نفسي والملك، في ليل يسرق الضوء المنبثق من غصن النهار البعيد، أرى الأشياء تتوجس بالسكون، غلاف الموت يغلفني، النهر هادئ كوداعتي، مثله أسلك دربي وحيداً، غريباً عن العالم والبشر.

سابعاً:
أصابع الحنين والألم

٤٠

ارتفعت الطائرة عن أرض المطار وبدت المدينة الساحلية على الخليج، عبر النافذة الزجاجية الصغيرة مجموعة من علب الكبريت المتلاصقة، هبطت دمعة من العين وراء النظارة السوداء الداكنة، امتزجت بخد أسود تلاعبت به تصاريف الزمان، بعد دقائق بدأ كل شيء مستقرا، أزيحت الأحزمة جانبا، باشر المدخنون في مؤخرة الطائرة إشعال سجائرهم، تعالت القهقهات هنا وهناك، وارتفعت أصوات المدردشين في مجموعات صغيرة تنبش حالة الوطن العصية على الفهم.

لم يشارك محمد في أي حوار مع أحد، أخرج منديله العتيق الأبيض ماسحاً الدموع عن خديه، أزاح النظارة السوداء، وضعها على الطاولة أمامه، أرخى المقعد للوراء، أغمض عينيه، ودخل في نوبة من التفكير العميق ما بين اليقظة والنوم.

بعد لحظات أيقظته المضيفة ذات الساقين الطويلتين، اعتذر

لها بأنه لا يريد أن يأكل أو أن يشرب شيئا، كانت مساحات الحزن قد سوّدت قلبه، لكنه بدا لطيفا وهو يعتذر للمضيفة، عاد برأسه للوراء، وواصل رحلة التفكير في حاله.

بعد دقائق، فتح عينيه مقاوما التفكير في أزمات متشابكة ألمت به في حياته وظلت بلا حلول، تلفت يمينا ويسارا، كان الجميع مشغولين بالثرثرة، أحس برغبة في التبول، كانت سببا مباشرا في قطع أفكاره، تحرك عبر الممر الضيق حتى أدرك الحمام، تبول واقفا، عاد لمقعده مستغرقا في النوم.

٤١

لـم تكـن الرحلـة طويلـة، ثـلاث سـاعات أو أقـل، أدركـت بعدهـا الطائـرة مطـار الخرطـوم، هبـط، بعـد عشـر دقائـق، كان قـد غـادر المطـار المتهالـك إلـى محطـة الحافـلات، فـي طريقـه إلـى مسـقط رأسـه، بعـد عشـر سـنوات قضاهـا خـارج الوطـن فـي المهجـر، عمـل فيهـا معلمـا لمـادة الفنـون، فـي مـدارس الخليـج.

طـرق بـاب بيتهـم، جاءتـه ابنتـه الصغيـرة مكـة، كانـت قـد كبـرت، لـم يعرفهـا، حسـبته ضيفـا، ظـن أنـه أخطـأ المقصـد، تركهـا مـا تـزال رضيعـة.

جـاءت أمـه مسـرعة، تغيـرت ملامـح وجههـا، اكتسـت حزنـا وسـوادا، كانـت تلبـس ثوبـا أزرق قديمـا باليـا، ضمتـه إلـى صدرهـا بحنـان دافـق، شـعر كأنمـا العالـم انطـوي وغـاب فـي تلـك اللحظـات، وبكـى بـكاء مريـرا.

عشـر سـنوات.. كيـف مضـت سـريعا إلا أنهـا أشـبه بحلـم فـي سـاعات القيلولة؟

كان مليئـا بالطموحـات والأحـلام التـي تعثـرت فـي مشـوار الحيـاة، لـم يفـز بشـيء، وخسـر كل شـيء، ارتشـف مـاء البئـر القديمـة فـي البيـت، تنـاول الغـداء، ثـم نـام فـي الحجـرة التـي ولـد فيهـا قبـل خمسـة وثلاثيـن عامـا، كانـت كمـا هـي لـم تتغيـر أبعادهـا ولا محتوياتهـا.

اسـتيقظ بعـد الظهـر، امتـلأ البيـت بالجيـران والأهـل، رجـالا

ونساء، صغارا وكبارا، استقبلهم بفرح كبير، كانوا يثرثرون من حوله، ويحتسون شراب الليمون الذي صنعته أمه للضيوف، ظل صامتا يقاوم الحزن، يبستم كلما تقاطعت نظراته مع وجه من الوجوه التي بدت غريبة عنه.

٤٢

فـي المسـاء بعـد أن انفـض الجميـع، ولـم يبـق إلا أمـه وزوجتـه سلوى، حـدث أمه بأنـه سيزور قبـر أبيه، ولـم يستجب لمحاولاتها بتأجيـل الأمـر إلـى الصباح، وصحبتـه وسط الظـلام إلـى المقبـرة الواقعـة وراء محطـة السـكة الحديديـة، فـي نهايـة البلـد مـن الشـرق، أشـارت لـه إلـى القبـر، جلـس علـى الأرض، شـرع فـي البـكاء، كانـت لحظـات عصيـة علـى القلـب، بكـت أمـه معـه، احتضنتـه، ثـم عـادا فـي ظـلام الليـل إلـى البيـت.

نـام تلك الليلـة كـأنه ينام فـي قبره الأبـدي، قـاوم الجـراح والأحلام الميتـة، لـم يمـارس عـادة القـراءة كمـا تعـود فـي ليالـي الاغتـراب، ونسـى فـي ذلـك الليـل آفـة السـهر إلـى مـا قبـل الفجـر بقليـل، لـم يشـته علبـة السـجائر الأنيقـة، وشـعر بألـم تجـاه كل سيجارة دخنها كان بيتهم في حاجـة إلى ثمنها، كان قـد صلـى العشـاء عنـد القبـر، ومنـذ سـنوات لـم يصـل أبـدا.

رأى أباه في الحلـم مـا قبـل الفجـر، يضـع يديـه علـى رأسـه، يقـول لـه:

«لا تحزن على الماضي يا ولدي»

كان ضـوء كثيـف قـد غمـر المـكان، اسـتيقظ فـي الصبـاح البـاكـر،

شرب شاي الصباح، بدت أمه اصغر سنا من الأمس.
كانت مكة تجلس منزوية في ركن قصي من المطبخ، تضع أصابعها على فمها، حملها على كتفه وخرج بها إلى ساحة البيت.
غابت خمس نخلات كانت وسط الساحة، انتقل الحمام القديم عن مكانه إلى ركن آخر وأصبح جديدا.

نهاية..

دخل الغرفة القديمة بحثا عن كتبه ومذكراته الورقية ورسوماته، كانت في مكانها، لم يصبها أذى، كأنما الزمن لم يتقدم يوما على يوم سفره، بدأ في تصفح الأوراق المصفرة، تراجعت ذاكرته للوراء أيام الحلم الكبير، عندما كان في الحياة متسعا من الوقت للأحلام، وكان بإمكان كل شيء أن يكون في المستقبل، لأن المستقبل كان بعيدا، لكنه اقترب وذاب في الحاضر، لتتلون الأيام خوفا مما تبقى منها.

الفهرس

إهداء.. ٥

أولاً: الرسم على الرمال... ٧

ثانياً: مع وضد الكهنة ٢٥

ثالثاً: في هذا الصباح سأقرأ شعراً ٣٩

رابعاً: الملك لا يمزح ٥٧

خامساً: فرقة عسكرية تعزف موسيقى الفراشات.. ٦٧

سادساً: الإطارات غائصة في الرمل ٧٣

سابعاً: أصابع الحنين والألم ٩١

نهاية.. ٩٧